
كاثلين نيلز
سجن العمر
٣٤

سجن العمر - كاتلين نيلز

فردت كولين جناحيها وطارت بعيداً عن سجن أبيها الذي سرق منها فرح طفولتها ومراهقتها، وحطت رحالها في المكسيك.

لكن بلاد الحرية والشمس، لم تكن بالنسبة لكولين سوى سجن آخر. فجوليانو انريكو يعتبرها ملومة لتصرف شقيقها الذي تخلى عن قريبته ليلة الزفاف، وهرب.

كولين التي وجدت نفسها تدفع ثمن أخطاء لم ترتكبها، اعتبرت أن هذا أسوأ ما يمكن أن يحدث لها. لكنها لم تكن تعلم، وهي العديمة الخبرة، أنها ستصبح أسيرة لسجن اخر.لن تستطيع الإفلات منه، سجن يسمونه الحب. سجانه لا يرحم، فقلبه، إذا كان له قلب، لا يسكنه إلا حب الانتقام.

تصدر عن دار الفراشة

السعر ١٥٠٠ ل.ل.

١ ـ رحلة الحرية

كان أمام كولين شادو أكثر من ساعتين من الانتظار. لم تكن قد ابتعدت عن موطنها من قبل. ولم تكن معتادة على الشعور بالإثارة التي بدأت تغمرها منذ اللحظة الأولى التي سافرت فيها.

وبالطبع كان هناك تحدي كبير أمامها: والدها... فبيتر شادو كان قد تحكم بها وبشقيقها رايان بيد من حديد، وبالرغم من بلوغها الآن الثالثة والعشرين، فقد كانت يائسة من الإفلات من قبضة يده، ربما كان هناك نقص فيها منذ البداية. فهي على عكس رايان لم يسمح لها بالذهاب إلى الجامعة، أو أن تختلط بمن هم في مثل سنها، وعندما قال لها رايان «اتركي الرجل العجوز وتعالي معي» فبالرغم من أنها شاركته الحماس إلا أنها لم تستطع أن تفعل.

وفاجأتها نوبة سعال، مما دفع السيدة المسافرة معها عبر الأطلسي إلى أن تلتفت إليها متسائلة:

ـ هل أنت بخير يا عزيزتي؟

ومسحت كولين الدمع الذي سببه السعال عن عينيها وردت:

ـ بخير تماماً. شكراً لك.

ولم تستطع كولين حقاً أن تجد كلمات مناسبة للرد على لطف السيدة لسؤالها. وأحسّت بالحرج، ففتحت حقيبة يدها وأخرجت رسالة قد حفظتها عن ظهر قلب. هذه الرسالة وصلتها من رايان في المكسيك منذ شهرين، في وقت كانت مصابة به بالانفلونزا مما

جعلها طريحة الفراش ليومين، وتركها هذا تعبة وفاترة الهمة، مع سعال أخذ يهاجمها من وقت لآخر، مما دفع والدها إلى تناول طعامه في الخارج. وخلال هذه المدة التقى أرملة تدعى آغي باركر، وتصادق معها، وكانت أصغر منه بخمس سنوات.

وتذكرت كولين ذلك اليوم الذي أحضر فيه والدها السيدة باركر إلى المنزل. وقال لها بحدة بعد أن رآها تحمل صينية وهي محنية الكتفين:

- لا تتكاسلي يا كولين.

وقالت لها السيدة باركر وهي تبتسم لها:

- لقد قال والدك إنك كنت مصابة بالرشح.

- أنا أفضل حالاً الآن.

ثم بدأت تسعل، فاندلق الشاي من الفنجان الذي كانت تقدمه للسيدة باركر، فسألتها وهي تتراجع قليلاً وكأنها خائفة من التقاط العدوى:

- وهل تأخذين أي دواء للسعال؟

وأجاب والدها:

- يقول الطبيب إن سعالها سيزول عندما تبدأ الشمس بإرسال دفئها.

ونظر نحو النافذة إلى المطر المنهمر في الخارج وأضاف:

- انظري يا آغي. نحن في شهر أيار، ولم يظهر بعد أي دليل على قدوم الصيف!

وعاد تفكيرها إلى الرسالة التي تلقتها من شقيقها. وإلى حرارة الشمس التي تتوقع أن تلاقيها، كان لطفاً منه أن يدعوها لحفلة زفافه. كان يبدو من رسالته وكأنه قد استقر في المكسيك، وأنه قد حصل على وظيفة جيدة، مما مكّنه من دعوتها كي تبقى معه قدر ما

تشاء، وقال في رسالته:

- المال ليس عائقاً. احزمي ثيابك فقط وتعالي. فلديّ منزل كبير بانتظار أن أنتقل إليه مع ايزابيلا. ويمكن أن نمضي فيه أياماً دون أن نراك.

وابتسمت كولين لأفكارها، من الرائع أن تسافر لترى شقيقها الوحيد يتزوج، وإذا أقامت معه ومع عروسه، فستبتعد بالتأكيد عن طريقهما، ولكنها لم تستطع أن تدبر سوى بطاقة ذهاب فقط، وبما أن رايان يعرف وضعها المالي، فسوف يدفع لها بالتأكيد ثمن تذكرة العودة.

قبل موعد زواج شقيقها باسبوعين، كانت تعمل في المطبخ، وكان والدها يزور آغي باركر في منزلها. ثم سمعت صوت مفتاح والدها في قفل الباب. ودخل المطبخ، وهذا أمر نادر أن يفعله. ودون أن تنظر إليه أخذت تحرّك الحساء الذي كانت تحضّره لوجبة العشاء. وقالت له:

- لقد كنت أفكر... كم أحب أن أسافر لأحضر زفاف رايان.

ونظرت إلى والدها بعد أن قالت هذا، وكما توقعت، بدا غاضباً، ولكن ذلك الغضب، كما علمت فيما بعد كان لأنها سبقته في الكلام. فقد كان لديه أخبار يود أن يقولها لها، ولم تعجبه فكرة أنها تجرأت على الكلام بأكثر مما كان يتوقع منها.

وتجاهل ما قالته وقال:

- السيدة باركر ستأتي الليلة للعشاء عندنا، وستصبح والدتك الجديدة، فتأكدي أن تحضّري طعاماً يكفي لثلاثة.

وخرج من المطبخ تاركاً كولين واقفة مشدوهة ومفتوحة الفم. ومع أنها لم تحب آغي باركر كثيراً، إلا أنها شعرت بالامتنان لها هذه الأمسية.

كان الأمر واضحاً، عندما جلسوا حول المائدة، أن والدها قد تحدث مع عروسه المقبلة عن رغبتها في السفر إلى المكسيك، والتفتت إلى والدها قائلة:

ـ لم تسنح لي الفرصة لأهنئك يا والدي.

وقالت للسيدة باركر:

ـ أنا مسرورة جداً سيدة باركر. . وأنا واثقة أنك. . .

وقاطعتها آغي غير مكترثة بالتهنئة التي قدّمتها:

ـ لقد أخبرني بيتر عن رغبتك بالسفر لحضور زفاف شقيقك بعد اسبوعين.

وأجفلت كولين، وصوّبت عينيها الزرقاوين نحو والدها. وكان يتابع تناول طعامه قانعاً بترك الحديث للسيدة باركر، وردّت عليها بهدوء:

ـ أجل. . هذا صحيح. . إنه شقيقي الوحيد و. . .

وقاطعتها السيدة باركر مرة أخرى وكأن كل شيء قد سوي أمره:

ـ وتعتقدين أن عليك الذهاب. . . والدك سيبيع هذا المنزل وينتقل للسكن معي. ومنزلي لا يتسع لثلاثتنا.

فيما بعد، وفي غرفتها، أخذت كولين تفكر: كم أنا سعيدة لهذا، كم أنا محظوظة للخلاص من أن يكون مصيري خادمة لوالدي وزوجته.

وعلمت في اليوم التالي أن السيدة باركر قد تمكنت من أن تجعل والدها مطيعاً لها قليلاً. فلم يعد كريماً معها كما كان، حتى وقد أصبح قادراً على ذلك من خلال بيعه لمنزله. وقال لها:

ـ سأدفع ثمن تذكرتك. . ذهاباً فقط.

ـ ولكن. . أتعني أنك لا تريدني أن أعود؟

كانت المرة الأولى التي تتحداه فيها، ودهشت عندما اكتشفت أنه

كان عليها أن تفعل هذا من قبل، فقد كان جباناً.

ـ لم أقل هذا. . لقد قال شقيقك إنه سيدفع أجرة عودتك، ألن يفعل؟ معه مال أكثر مني. . فليدفع!

ولم تتقبل الفكرة. ولكن بما أنها لم تكن قد حصلت بعد على المال منه، حتى لتذكرة الذهاب فقط، فلم تجرؤ على مناقشته، فهي تعرف بأنه قد يتراجع عن كلمته.

ـ وهل هناك مجال أن أحصل على بعض المال لأشتري بعض الثياب؟

وضاع رده بعد أن انتابته نوبة سعال. ومع أنها علمت أن ما فعله لم يكن بدافع الشفقة عليها، فقد أعطاها شيكاً يغطي ثمن التذكرة ويكفي لشراء بعض الملابس ويبقى معها القليل لتصرفه.

وأقبل موظف ودود وجمع المسافرين الذين سيتابعون الرحلة إلى المكسيك. بعد أن حطّت الطائرة، ووقفت كولين مع الآخرين في انتظار الطائرة، هل سيقابلها رايان في مطار مدينة مكسيكو؟ كم هي بشوق لرؤيته.

الرحلة من مطار ميامي إلى مدينة مكسيكو كانت مريحة. فطائرة «الدي سي ١٠» كانت ملائمة للسفر أكثر من الجامبو التي أوصلتها إلى ميامي. واستغرقت الرحلة ساعتين وأربعين دقيقة قبل أن تلامس الطائرة أرض المكسيك، واختفى كل التعب الذي كانت تشعر به، عندما فكّرت بأنها بعد أن تمر عبر الجمارك سوف ترى شقيقها الذي تحبه كثيراً.

لا بد أنه تلقى رسالتها. . وجالت عيناها في المستقبلين، ثم ثانية محاولة رؤية رايان. ولكن خيبة الأمل صدمتها، إذ لم يكن موجوداً للقائها. ومع ذلك تقبلت الأمر، فـ«كواريتارو» تبعد مئة وعشرين ميلاً عن العاصمة، ربما يكون مشغولاً، وربما كان مضطراً للسهر مع خطيبته، وعاودها الشعور بالتعب. حسناً. . لن تستطيع

الوصول إلى «كواريتارو» وهي واقفة هكذا. . . وتذكرت أن رايان قال لها في إحدى رسائله إنه يوجد رحلات منظمة إلى هناك، فتحركت لتستقل سيارة أجرة توصلها إلى المحطة.

كتاب تعليم اللغة المكسيكية، أفادها كثيراً، ورافقها الموظف في المحطة إلى «باص» أكّد لها، أنه سيوصلها إلى «كواريتارو»، ووجدت مقعداً لها، وتنهدت بارتياح لنجاحها حتى الآن.

وخاطبها رجل مكسيكي قوي البنية، وهو يحمل طفلين ووراءه زوجته ومعها ولدين آخرين.

ـ بردون سنيوريتا.

وابتسمت له، وأشار إليها أنه يرغب في تبادل المقاعد لتستطيع العائلة أن تجلس على مقعد واحد. فقالت:

ـ دي نادا. . (أي على الرحب والسعة). .

ـ موتشا غراتياس (شكراً جزيلاً).

استغرقت الرحلة إلى كواريتارو، ثلاث ساعات، شعرت خلالها كولين بالتعب الشديد، فقد كانت تخاف أن تغمض عينيها فتنام ويمرّ الباص في البلدة التي تقصدهادون أن تنتبه.

واستلمت حقائبها من مخزن الباص الجانبي، ودخلت إلى المحطة وهي قلقة، وكادت تنفجر بالبكاء عندما لم تشاهد أي أثر لرايان هناك. وسمعت صوتاً يخاطبها بالانكليزية:

ـ يبدو عليك أنك ضائعة. أمامنا عمر كامل لننتظر وصول وسيلة سفرنا. هل تحتاجين لأية مساعدة؟

وأحسّت بأنها لم تعد وحيدة لرؤيتها شاب وصديقته مهتمان بها. وشرحت لهما بأنها كانت تأمل أن يكون شقيقها هنا لاستقبالها، وأنه سيتزوج في الغد، وأكملت:

ـ لا بد أنه مشغول جداً.

فضحك الشاب وقال:

ـ أو أنه يسلّي نفسه في مكان ما في آخر ليلة حرية له، هل تعلمين أين يقيم؟

وأخرجت كولين الرسالة وعليها عنوان شقيقها، وأخبرها الشاب أن العنوان بعيد، وعرض عليها أن يرافقها في التاكسي ليشرحا لصاحب الملك بأنها شقيقة المستأجر عنده، لأنهما يعرفان اللغة، كي يسمح لها بالدخول إلى شقة شقيقها.

خيبة الأمل كانت تنتظرها أيضاً في العنوان الذي أوصلها التاكسي إليه برفقة الشابين، فقد اكتشفت بأنه ترك الشقة هذا الصباح.

وفكرت أن تذكر اسم خطيبته ايزابيلا لعل الاسم يعطي فكرة للمالك، وانطلق هذا يتكلم مع الشاب الذي رافقها، توم، وكل ما فهمت منه كلمات متقطّعة بالاسبانية منها «خطيبته» و«السنيور ديلفاغيو». . . وظهرت ابتسامة على وجه توم وهو يشكر المالك موضحةً بأنه أصبح يعرف مكان وجود رايان.

ـ من الواضح أن شقيقك مرتبط بالخطبة مع ابنة أحد أهم الرجال في المدينة. فالسنيور ديلفاغيو له أعمال هندسية في كل المنطقة، والجميع يعرف أين يقيم.

وكتب لها العنوان على ورقة، فقالت:

ـ وهل تظن أن لا مانع من ذهابي إلى هناك؟

ـ ليس من طريقة أخرى، فهناك فرصة كبيرة أن يكون أخوك هناك، أو سيكون بإمكانهم إعطاءك عنوانه الجديد.

وأسفت كولين لافتراقها عن الزوجين الشابين، اللذين أظهرا لها كل الود. وبعد رحلة في التاكسي طويلة جداً، وجّه السائق السيارة إلى طريق مرصوفة على جانبيها صف من الأشجار، كانت مضاءة جيداً، وتوقف أمام أسوار المنزل، ونزلت كولين من السيارة أمام

باب حديدي ضخم مزدوج مرتفع، المكان بدا هادئاً جداً، وساورها انطباع بأن أحداً لن يسمعها عندما تدق جرس الباب.

وضغطت على الجرس ثانية دون أية نتيجة. . . أيمكن أن عائلة ديلفاغيو ليست في المنزل أيضاً؟ وتملكها الذعر، إذ ليس بإمكانها أن تدق على أي باب آخر إذا لم يردّ عليها أحد هنا.

فجأة، سمعت نباح كلب، ثم وقع خطوات. وحاولت أن تتذكر القليل مما تعلمته بالاسبانية، وقالت بعد أن فُتحت كوة في الباب:

ـ باردون. . . سنيور شادو هنا؟

ونظرت إليها الفتاة التي فتحت الباب نظرة جامدة، ثم ولدهشتها، صفقت الباب بوجهها.

ماذا. .؟ ووقفت متحيرة، ثم أدركت أن الفتاة لا بد قد ذهبت لتبعد الكلب الشرس الذي كان معها. وسمعت وقع أقدام رجولية ثابتة قرب الباب، لا بد أن الفتاة فهمت ما قالته وأرسلت من يستدعي رايان. وتوقف وقع الأقدام، ثم فتح الباب، واتسعت ابتسامتها، وحاولت التقدم، خطوة إلى الأمام، وهي مستعدة لعناق رايان، مستعدة لرؤية الدهشة على وجهه.

وتلاشت ابتسامتها فجأة. فالذي ظهر أمامها لم يكن رايان، بل رجل أكبر من شقيقها بعشر سنوات تقريباً. طويل، عريض الكتفين مثله، ولكن لم يبدو مسروراً لرؤيتها، وأحسّت كولين بالبرد. وقال لها بالانكليزية:

ـ الخادمة قالت إنك تسألين عن السيد شادو.

ـ أجل. . فأنا. . .

ـ هل أنت واحدة أخرى من نسائه؟

ـ ماذا؟

وصدمها بشدة ما سمعته. . لا بد أن هناك خطأ! وهذا واضح إذا

كان هذا الرجل هو السنيور ديلفاغيو، ولا بد أنه تزوج باكراً ليصبح أباً لايزابيلا، ولكنه يتكلم عن رايان ونساء أخريات! وقالت له ببرود:

ـ اسمي كولين شادو. ورايان شقيقي. لقد وصلت لتوي من انكلترا. لقد أتيت لحضور زفافه غداً.

وأخذ الرجل يتفرّس بها فترة طويلة، ولكنها صمّمت مقابل عدائيته أن لا تسمح له بأن يلاحظ تعبها. وصممت أكثر أن لا تخطو خطوة قبل أن تفهم ما يجري، وماذا يقصد من قوله «واحدة من نسائه».

وأنهى الرجل تفرّسه بها، ثم تكلم وصوته لا ينم عن الترحيب كثيراً:

ـ الأفضل أن تدخلي.

ـ وهل رايان هنا؟

وكان من الأفضل لها أن توفر كلامها، فقد تجاهلها، وأدخل حقائبها عبر الباب الضخم، ولحقت به. ثم أقفل الباب وراءها، عندها أحسّت بأنها لم تحبه.

وتبعته رغماً عنها، وهو يتقدمها نحو غرفة جلوس تشع بالأنوار. وأشار إليها بالجلوس قبل أن يجلس. وجلست، فقد كانت معتادة أن تفعل ما يطلب منها. وهنا تمكنت من أن ترى الرجل بوضوح أكثر، ودهشت لأنه لم يكن يبدو أبداً كمكسيكي. فشعره كان أشقرا أكثر من شعر رايان، وله أنف ارستقراطي كان يحدق بها من طرفه. الطريقة المتعجرفة التي كان ينظر بها إليها كانت مألوفة لديها، وهي لم تأتي كل هذه المسافة لتلحق تلك النظرة بها، أو تستمر بمراقبتها. وسألته:

ـ هل أنت السنيور ديلفاغيو؟

- روبرتو ديلفاغيو هو ابن عمتي، ولقد أتيت من مزرعتي في «دورانغو» اليوم متوقعاً أن أكون ضيفاً في عرس ايزابيلا غداً.

- متوقعاً. . .؟

الطريقة التي قال بها الكلمة، كانت تقرر بأنه لن يكون هناك حفل زفاف، ولكن هذا سخيف. فالترتيبات قد تمت منذ أشهر على الأقل.

- هل لي أن أرى ايزابيلا أو أحد أفراد عائلتها؟

- ألم تفهمي. . . لقد قلت لك إنني من العائلة!

- أعني عضو أقرب.

وضاقت عيناه، مما جعلها تدرك أنها اقتربت كثيراً من إهانته.

- لا أعلم الكثير عن بلدكم. . ولكننا في المكسيك، عندما تحدث مشاكل لفرد من العائلة تتّحد جميعنا، مهما كانت قرابتنا بعيدة.

- مشاكل؟ أية مشاكل؟

- اسمي جوليانو انريكو غاتورادي. . ولقد طلب مني ابن عمتي روبرتو أن أتعامل معك. فهو وزوجته، وايزابيلا، حصلوا من عائلة شادو على ما يكفيهم لفترة طويلة.

وتملكها القلق:

- يكفيهم مماذا؟. . .

ولم تستطع فهم شيء مما يقول. . . هذا الرجل البارد طُلب منه أن يتعامل معها! وبما أنه لا يعطيها أي جواب، فكل ما تستطيع أن تأمله هو أن ترى رايان في أسرع وقت ممكن.

- إذاً ربما سنيور ريكو. . .

- انريكو. . .

- إذاً، ربما يا سنيور، بما أنني سأتعامل معك، ستدلني على

عنوان منزل شقيقي. وعندها لن أعود أزعجك. لقد ذهبت إلى شقته وقيل لي إنه تركها، وفي آخر رسالة له قال لي إنه اشترى منزلاً له ولايز. . .

فقاطعها بعنف:

- هو لم يشترِ شيئاً. . المنزل الذي كان مقرراً أن يصبح منزل ايزابيلا، اشتراه لهما والدها. ولم يساهم شقيقك ببيزوس واحد من ثمنه.

وشهقت، فهي واثقة أن شقيقها قال إنه هو الذي اشترى المنزل.

وتابع جوليانو انريكو كلامه:

- شقيقك يا سنيوريتا شادو، كان مهتماً بشيء واحد فقط من خطيبته

واحمرّ وجه كولين، ولكن جوليانو انريكو نظر إليها ساخراً وتابع:

- ليس كما ظننت. ففد كان يتلقى هذا من مصدر آخر. أما بالنسبة لايزابيلا فكل ما كان يهتم بالحصول عليه منها هو المال الذي ظن أنها سترثه يوماً. ولكن طفلتنا، وبجهل، أو حكمة كما أراها، أخبرته يوم أمس أن المزرعة التي كان يظن أن والدها يملكها تخصني أنا. وأن روبرتو لا يملك مالاً سوى ما أدفعه له لإدارة أعمالي.

- ولكن رايان. . رايان لم يكن يهتم بالمال. . . لم يكن يهتم أبداً. . وأنا لا. . .

- لا تصدقين؟ إذاً صدّقي هذا سنيوريتا. فهذا الصباح، وقبل الزواج بيوم واحد، وجد شقيقك من المناسب أن يهجر خطيبته.

- يهجرها!

وحاول عقلها أن يستوعب ما تسمع، ولكن واقع أنها لم تنم منذ ما يقارب الأربع وعشرين ساعة لم يساعدها على التفكير. وتابع:

ـ هو لم يتخلى عنها فقط بعد أن اكتشف أن توقعاته بأن يصبح ثرياً هي بدون أساس. بل كان لديه ما يكفي من الوقاحة ليزيد الإهانة إلى هجرانه، بأن أخذ معه امرأة كان على علاقة معها في نفس الوقت الذي كان يزورنا فيه.

ووقفت كولين صارخة:

ـ لا!.. لا!

وبدا أن طاقتها قد بدأت تتلاشى، وحدّقت به بارتباك، محاولة إغلاق رأسها أمام أي خبر مزعج قد يقوله بعد:

ـ وإذا كنت قد أتيتِ إلى هنا كي تحصلي على نصيبك من هذه الصفقة...

ولم يعد بمقدورها تحمل المزيد. وحاولت أن تخطو، إلى أين، لم تكن تدري، ثم اكتشفت أن ساقيها قد بدأتا تنثنيان تحتها، وأن كل قواها قد تخلت عنها، وهكذا تحركت الحركة الوحيدة الممكنة، إلى الأسفل نحو السجادة. وكانت لا تزال تنظر في وجهه المخيف عندما غشي بصرها. وظنت بأنها لمحت بعض الاهتمام، وهذا أمر غريب أمام التعبير السابق. ثم لم تعد تفكر بشيء مطلقاً وقد انثنت ركبتاها.. وآخر ما وعته، أن ذراعان قويتان، أمسكتا بها فجأة...

●●●

٢ ـ السجان الجديد

عندما استعادت كولين وعيها كانت في نفس الغرفة التي فقدت الوعي فيها. ولكن الذراعان القويتان لم تعودا تحيطان بها. وتساءلت إذا كانت قد تخيلت ما حدث، ووجدت جوليانو انريكو واقفاً بقربها. وبما لم يكن هو، بل شخصاً آخراً هو الذي وضعها على أريكة، وليس على الأرض.

وتملكها التعب، ورغبت في إغماض عينيها ثانية. ثم تذكرت الأشياء الفظيعة التي قالها لها هذا الرجل الأطول من المكسيكيين العاديين، وجاهدت كي تجلس، محاولة الاحتفاظ بأكثر ما يمكن من كرامتها.

وسمعته يقول:

ـ هل تشعرين بشكل أفضل سنيوريتا؟

وتذكرت بأنه اتهمها بأنها أتت إلى المكسيك لترى ما تستطيع أن تلتقطه هنا من ثروة!

ـ أنا بخير تماماً.

وأدركت، من دون أي شك، بأنه لم يصدق بأنها غابت عن الوعي. وحمدت الله على كبريائها الذي استطاع دفعها إلى الوقوف، دون أن يبدو عليها ما يشير إلى مدى ارتجاف ساقيها. وكان الرجل الذي بدأت تكرهه أكثر من أي شيء آخر في الدنيا. واقفاً أيضاً. ولكن تجاهلت يده الممدودة بقصد مساعدتها:

- أعتذر لإغمائي هكذا. . . فهذا أمر لا يحدث لي عادة. . لقد مضى وقت طويل لم أنم فيه.

- اسمحي لي إذاً يا سنيوريتا، أن أعوّضك عن هذا.

ونظرت إليه، وأخذ عقلها يفكر بوضوح أكثر، الوضع الذي هي فيه لا تُحسد عليه. فليس لديها أية فكرة عن مكان وجود شقيقها، ولا أحد آخر قد يعرف. وليس لديها مال كثير، ولن يوصلها هذا إلى أي مكان.

- هل تقترح عليّ أن أنام هنا؟

- هذا صعب. فعائلتي قد عانت ما يكفي على يد عائلتك. ولا يمكن التفكير بأن تستيقظ ايزابيلا صبيحة اليوم الذي كان يفترض أن يكون يوم زفافها لتجد شقيقة من خانها تنام تحت سقف واحد معها.

- رايان لا يفعل. . .

وقاطعها بثبات:

- سآخذك إلى فندق. . وسنخرج الآن.

إذاً، فهو لا يريدها في المنزل ولا دقيقة بعد. بإمكانها أن تتفهم هذا. فلا بد أن ايزابيلا بحاجة لعناية طبية لتهدئتها. ومع ذلك فلم تستطع تصديق أن رايان قد فعل هذا.

- هل أنت جاهزة للذهاب؟

ودون أن تردّ التقطت حقيبة الكتف التي أدخلتها معها، وتحركت نحو الباب حيث كان جوليانو انريكو ينتظرها، ورافقها عبر التراس والتقط حقائبها ثم اتجه معها إلى سيارة واقفة خارج المنزل، فجلست فيها آملةً أن يختار فندقاً صغيراً رخيصاً.

وغاص قلبها عندما لاحظت أنه أوقف السيارة أمام فندق كبير فخم وحديث، فهذا سيكلّفها الكثير، وهي تعرف هذا.

وقالت له، راجيةً أن يظن بأنها تفضّل الفنادق الصغيرة ولا شيء أكثر.

- أفضّل فندقاً أصغر من هذا.

- ما تفضّلينه ليس مهماً الآن. الوقت متأخر ولا أنوي قضاء الليل في البحث عن مكان يلائم ذوقك.

ونزل من السيارة وفتح لها الباب، ثم حمل حقيبة في كل يد، ووقف على الرصيف، ومن الواضح أنه كان يتوقع أن لا تناقشه، ولكنها لم تتحرك خطوة. وأحسّت بكراهية له أكثر، ليس فقط لأنه قال لها بأنها أتت إلى هنا بحثاً عن الثروة، بل أيضاً لأنها ستضطر أن تخبره عن وضعها المالي. وواجهته قائلة:

- ما معي من مال لا يتناسب مع هذا النوع من الفنادق.

- أتعنين أنك هنا دون مال؟

ولم تعجبها رنة الرضى في صوته التي تثبت ريبته فيها. ودون أن تنظر إليه، دفعها كبرياؤها ثانية وسارت متجهة إلى مدخل الفندق. إقامتها هنا سوف تدمّرها مالياً، وهي تعرف هذا، ولكنها لن تفكر بهذا قبل أن تحصل على بعض النوم.

ووقفت جانباً، بينما كان يتحدث مع موظف الاستقبال، ثم شاهدت صبياً يحمل حقائبها ويأخذ المفتاح، ونظرت بثبات إلى جوليانو انريكو غاتورادي دون أن تفوتها ملاحظة التوقد في عينيه، ثم استدارت لتلحق بالصبي نحو المصعد.

* * *

كانت الشمس تشع عبر النافذة عندما استيقظت. ونظرت إلى ساعتها. . لقد كانت تظن أنها ستنام لشدة تعبها عدة أيام، ومع ذلك فالساعة تشير إلى الثامنة إلا عشر دقائق. وتذكّرت الإرهاق الذي هاجمها بعد خروج الصبي من غرفتها، ولم يدهشها أبداً أن النوم

غلبها فور أن وضعت رأسها على الوسادة. وداهمتها نوبة سعال مفاجئة، حتى دمعت عيناها. إنها هنا والشمس مشرقة الآن، فلماذا لا يتوقف سعالها؟ على كل الأحوال ليس لديها وقت الآن للاستغراق في هذه الأفكار، فهناك أفكار أخرى تتجمع في رأسها.

كانت خارجة من الحمام، ترتدي ثوباً قطنياً قديماً، عندما شاهدت مذكرة من الفندق تقول إن الغرف يجب أن تُخلى قبل الساعة الثانية. وهذا يعني أن أمامها وقت حتى الثانية لتقرر ماذا ستفعل. في البداية، سوف تذهب لتقابل مالك شقة شقيقها الذي قابلته ليلة أمس، فلا بد أن شقيقها، إذا كان هرب مع امرأة أخرى، حتى ولو لم تصدق هذا، قد ترك دليلاً على مكان وجوده؟

ووجدت حرارة الشمس مقبولة في البداية، ولكن بعد عشر دقائق من السير، أدركت أن من المستحيل السير بشكل متواصل، وأحسّت بالراحة بعدما جلست خمس دقائق على مقعد في إحدى الساحات العديدة للمدينة.

وبعد نصف ساعة من السير، قضتها بالسؤال بواسطة الإشارات وكتاب تعليم الإسبانية، والرسالة التي تحتوي على عنوان رايان، تمكنت من الوصول أخيراً إلى حيث تقصد.

وكان عليها أن تعترف بالهزيمة بعد أن رنت جرس الباب، ثم ضربت على الباب بقوة دون أن تتلقى أي رد. وخرجت من المبنى دون أن تعلم أين ستذهب، عليها أن تعود فيما بعد، ولكن المشكلة الجديدة كانت تغزو كل تفكيرها... إذا وجدت عنوان شقيقها فمن السهل أن تصل إليه.. ولكن أين ستقضي هذه الليلة؟

كانت تشعر بالحرارة، والانزعاج، ولكن دون خوف، ووجدت نفسها في شارع ماديرو.. واغتنمت الفرصة لتهرب من الشمس، فدخلت إلى أحد محلات بيع الكتب. لم تكن تنوي شراء شيء،

ولكن المكان هنا أبرد وأمضت عدة دقائق في تفحص بطاقات البريد، وتفكيرها مشغول فيما ستفعله الآن؟

وخرجت من المحل، واتجهت إلى حديقة عامة فيها نافورة ماء تتدفق، يقصدها العديد من الناس الهاربين من حرارة الشمس للاسترخاء على المقاعد الخشبية الموضوعة هناك.

ولكنها لم تستطع الاستقرار، فوقفت ثانية، وأخذت تتمشى على مهل. كواريتارو، كما علمت، بلدة ذات أهمية تاريخية. فهنا أُعدم الامبراطور ماكسيميليان، وهنا عاشت جوزيفا اورتيزدو دومينغيز بطلة الاستقلال، وإلى هنا أُعيدت بقاياها بعد موتها. وتمنت وهي تمر قرب التمثال المقام لها في الساحة لو أنها تملك جزءاً يسيراً من شجاعتها.

وبلغت الساعة الثانية عشر، وهي ما تزال تسير على مهل وعلى غير هدى. ووصلت إلى كنيسة «سانتاروزا» ودخلتها لتخرج بعد قليل وهي تشعر بالهدوء أكثر، مع أنها ظلت قلقة، وسارت نحو الحديقة المقابلة لتجلس هناك، وتذكرت أن عليها العودة إلى الفندق قبل الثانية، ولكنها لم تكن متلهفة لأن تحمل حقيبتين وتسير في الشوارع، وخطرت في بالها فكرة البحث عن عمل يقيم بأودها حتى تستطيع أن تجمع ما يكفي لثمن بطاقة العودة. ولكنها لا تدري أي نوع من التراخيص هي بحاجة إليه للعمل في المكسيك، وما هو نوع هذا العمل؟ فكل ما كانت تجيده هو إدارة المنزل، وأي امرأة بإمكانها أن تفعل هذا.

ولم تكن أذنيها مستعدتان، وهي مستغرقة بالتفكير، أن تسمعا الصوت الذي ظنّت بأنها لن تسمعه ثانية.

- أين كنت طوال هذا الوقت؟

وأجفلت لرؤية جوليانو انريكو يقف أمامها، فتراجعت بخوف.

وبقيت جامدة، والعبوس على وجهها. وقالت له ببرود:

ـ معرفتك التامة باللغة الانكليزية تدهشني. أنا أعرف أين كنت، لقد ذهبت لأقابل صاحب منزل شقيقي.

ـ ولماذا؟

وكانت على وشك أن تطلب منه أن يهتم بشؤونه عندما تقدّم ليشاركها الجلوس على المقعد الخشبي المدهون باللون الأبيض. فقالت قلقة:

ـ لقد ذهبت لأسأل عن عنوانه الجديد.

ـ كان بإمكاني توفير المشقة عليك.

وأدارت رأسها بقوة:

ـ أتعلم أين هو؟ صاحب الملك لم يكن موجوداً، وفكرت أن أعود لاحقاً عندما يعود من عمله.

ـ لا.. لا أعرف مكانه، وكم كنت أود لو أعرف. ولا يعرف صاحب الملك أين هو كذلك.

ـ شكراً لك لأنك وفّرت عليّ الذهاب إلى هناك ثانية.

ووقفت، ولكنها لم تخطو سوى خطوتين، عندما أمسك بذراعها ليوقفها:

ـ وأين تظنين نفسك ذاهبة الآن؟

وحاولت أن تتخلص من القبضة الحديدية التي أمسكت بذراعها، ولكنها لم تنجح، وأوشكت على البكاء، ولكنها منعت نفسها بجهد حتى لا تمنحه فرصة الرضى ثانية لمشاهدتها وهي تبكي.

ـ أنا ذاهبة إلى الفندق لآخذ حقائبي وأسدّد حسابي.

ووجدت نفسها مجبرة على العودة إلى مقعدها، هذا إذا كانت تريد أن تتجنب صراعاً معه أمام أنظار الناس.

ـ فاتورة الفندق مدفوعة.

ـ وهل دفعتها أنت؟ قل لي من فضلك كم دفعت...

ـ لا تكوني سخيفة!

ولاحظت أنه قد غضب لأنها تحاول أمام الجميع أن تدفع له مالاً.

ـ أنا لست سخيفة.. ولكن إذا كنت تظن أن كرامتك كرجل قد جُرحت بسبب...

وأسكتتها النظرة على وجهه.. فقد بدا مستعداً لضربها! ولاحظت ضغطه على فكيه، ثم أدركت أنها كانت مخطئة بما ظنته حول كرامته. فقد أخبرها، دون اكتراث برأي أحد به، كم كلّفت الإقامة لليلة واحدة في الفندق، وحاولت أن لا تقفز من مكانها عجباً لضخامة المبلغ، بينما أمدّ يده إليها كي تدفع له، وراقبها بعينين حادتين وهي تفرغ ما في حقيبة يدها، وعندما رأى ما تملك قال:

ـ أقبل أن تدفعي شيكات سياحية إذا كان هذا كل ما تملكينه من مال نقدي.

مال نقدي!.. هذه القطع النقدية هي كل ثروتها. فتمتمت:

ـ لا أملك شيكات سياحية.

ـ وهل هذه النقود في يدك كل ما تملكين؟

ـ إنها تكفي لتغطية فاتورة الفندق.

وشعرت بالغضب لأنه لم يحاول أن يأخذ المال الذي كانت تقدمه له، وفهمت أن السبب الوحيد لمطالبته لها بالمال هو أن يعرف ما بحوزتها من نقود. وتمنت لو أنها لم تقل له إنها لا تملك شيكات سياحية، وبدت غبية وهي جالسة هكذا تمد له يدها بالمال، وهو يتجاهله. ثم سألها:

ـ إلى متى كنت تنوين البقاء هنا؟

- لقد كنت أتوقع أن أقابل شقيقي.
- وهل كنت تتوقعين أن يدفع لك مصاريف إقامتك؟
- أنا.. لقد.. دعاني للحضور. وقال...

أوه.. لما هي مهتمة هكذا! وعاودها كبرياؤها، فقالت:
- أستطيع العودة إلى بلدي بسهولة.
- وهل حجزت لطائرة العودة؟

كان سؤاله حاداً.. بشكل دفع كولين، التي لم تكن معتادة على الكذب، إلى أن ترد قبل أن تفكر:
- لا...
- ولكن معك تذكرة العودة؟

احمرار وجهها الفجائي أجاب عنها، وعلمت أنه عرف الرد.
- أستطيع أن أجد وظيفة.. عمل.. أنا..
- وهل كنت تتوقعين أن يدفع لك شقيقك ثمن تذكرة العودة؟
- من ماله الخاص وليس من مال ايز... خطيبته السابقة.
- يبدو لي، سنيوريتا شادو، أنك في مأزق.
- أنت ذكي حتى تستطيع استنتاج هذا!
- لا أعتقد أن من الحكمة أن تتكلمي معي بهذه اللهجة سنيوريتا.
- وما السبب؟
- السبب، يا كولين شادو، هو أنني أستطيع ان اضمن لك أن لا يوظفك أحد هنا، وفي نفس الوقت هناك فرصة بأن أفكر أنا بتوظيفك.

وأجفلت، ونظرت إليه لترى إذا كان جاداً، وأحسّت بكراهيتها لنفسها، فهذا الرجل هو آخر شخص قد تفكر بالعمل له، ومع ذلك فهي فعلاً في مأزق وتحتاج إلى المال، فعليها إذن أن تتنازل عن

كبريائها لتفهم منه المزيد:
- وما نوع هذا العمل؟
- ما نوع العمل الذي كنت تمارسينه في انكلترا؟

تدبير المنزل، عمل اعتادته بشكل طبيعي، إذ لم يكن لديها خيار آخر. فما من مديرة منزل استخدمها والدها في السنوات الأولى بعد وفاة والدتها استطاعت أن تتعايش مع طريقة حياته لمدة طويلة. وهكذا اضطرت لممارسة هذا العمل بشكل طبيعي.
- لم أكن أعمل..
- وهل كنت تفضلين العيش بكسل؟ وما نوع العمل الذي تفكرين به لكسب المال لأجل تذكرة عودتك إلى انكلترا؟
- مدبرة منزل.. في الفندق.. أي شيء. فالمركز ليس مهماً.

وساد صمت، بدا خلاله مستغرقاً في التفكير. ثم وكأنه اتخذ قراره، قال وهو يلقي الأوامر عليها، بطريقة متعالية:
- ارجعي مالك إلى جيبك، ستحتاجين إليه وإلى الكثير غيره، ستتناول الغداء أولاً.. ثم سأصطحبك معي إلى «دورانغو».
- دورانغو؟
- حيث أعيش.. لقد قلت لك هذا من قبل. لقد قلت إنك راغبة في العمل كمدبرة منزل، ولديّ العمل المناسب.
- العمل المنزلي؟

شعرت بالاشمئزاز منه، ولكنها كانت مستعدة للتمسك بأي شيء، مع أن قليلاً من الحذر منعها من الذهاب معه دون أن تعرف المزيد.
- وهل كنت تأملين بعمل أقل حقارة من هذا ربما؟

وهكذا لم يتخلى عن سخريته لوقت طويل، وإذا كان كبرياؤها قد أزعجه، فها هو يستعيد كبرياءه وهو ينظر إليها من طرف أنفه

ويقول:
ـ ربما فكرت بأن عملك في الفندق، قد يتيح لك مقابلة شخص ثري كما فكّر شقيقك أن يفعل؟ هل تخشين أن لا تكسبي في النهاية أكثر من أجرة سفرك عائدة إلى بلادك؟
وردّت بحدة وبرود:
ـ أنا لا أخشى العمل الشاق. وكل ما أطلبه أن أعرف المزيد من المعلومات عن العمل الذي سأقوم به. فأنا لا أعرف عنك الكثير سنيور. وأظن أنك توافق معي أن من الطبيعي أن أرغب في...
ـ أتظنين أنني سآخذك إلى منزلي.. لتنفيذ هدف آخر معك؟ اسمحي لي أن أقول لك بالنسبة لذوقي في النساء، أحبهن مع لحم أكثر على أجسادهن.
وكانت مضطرة لتجاهل إهانته حول جسدها النحيل، حتى ولو كانت تظن أن جسدها ليس سيئاً لهذه الدرجة، وقالت له:
ـ لم يتبادر إلى ذهني للحظة أن أفكارك ستتجه هذا الاتجاه، وإذا كنت قد قلت شيئاً، فلأنني أريد أن أفهم لماذا تريدني مدبرة لمنزلك، بينما نحن لا نحب بعضنا كما هو واضح. ولكن ما يهمني أكثر هو.. هل ستوافق زوجتك على أن...
ـ ليس لدي زوجة.
تصريحه الفظ جعلها تنظر إلى عينيه الزورقاوين غير العاديتين. ومن نظرته، بدا سعيداً لأنه أعزب.
ـ وهل سأعيش معك في المنزل؟
وتمنّت من كل قلبها أن لا يقول نعم، وأن لا تكون مضطرة للسكن معه لوحدهما. فهو يكرهها لما فعل رايان لعائلته، ويكرهها لاقتناعه أنها أتت إلى المكسيك لترى ما إذا استطاعت الحصول على شيء، وتعلم بأنهما سيتشاجران كلما فكّر بالموضوع، ولأنها

امتلكت حريتها حديثاً، فليست مستعدة أن تنتقل من ظلم والدها واستبداده، إلى تحت حكم هذا المستبدّ الجديد، وقال لها:
ـ ستعيشين معي تحت سقف واحد، ولكن سيكون معك من يرافقك، إن كان هذا ما يقلقك، فمدبرة منزلي تعيش هناك مع زوجها.. وطالما لن أنسى أن الأرنب السمين أفضل من النحيل.. يمكنك أن تنامي وأنت مرتاحة، سنيوريتا. وستكون تينا، وزوجها امادو منزعجين كثيراً إذا حدث شيء شرير في المنزل.
المزيد من الإهانات! والمزيد من التأكيدات بأنها آخر امرأة في الدنيا قد يفكر بها. إنها تعرف القليل عن الرجال، ولكنها ليست غبية كي لا تميز نظرة الإعجاب عندما تراها. ولكن ما يزعجها أن جوليانو يحاول تدمير ثقتها بنفسها. ولن تقول له إن كبرياؤها نابع من خجلها، الطبيعي، وأنها لأكثر من مرة أرادت أن تكون ودودة مع الناس، وأن عفويتها تنبع من تحفظها. وأنها فقط هنا في المكسيك وفي الباص الذي أتى بها إلى هنا، بدأت تخرج من عزلتها، وبقي صامتاً ليترك لها مجالاً للتفكير، ثم قالت:
ـ وهل أفهم من هذا أن عليّ أن أقوم بالأعمال الصعبة في منزلك؟
ـ ستعملين هناك وتنامين هناك.. أجل.
وابتسم، فأشاحت بنظرها بعيداً، فهناك معنى عميق في هذه الابتسامة الساخرة. إن ما من أحد يمكن أن يزعجه وينجو بفعلته، وإنه سيكون له الكلمة الأخيرة في الدّين الذي على أخيها لعائلته، فهو يظنها سيدة كسولة لا تعرف طرف الفرشاة من قبضتها، وسيكون مسروراً جداً لرؤيتها جاثية على ركبتيها تنظف الأرض..
وقال لها:
ـ العمل الذي عندي لك يا كولين شادو، هو تنظيف كامل

للمنزل الذي سيسكنه المراقب الجديد الذي أتوقع قدومه بعد وقت قصير.

وابتسمت له كولين، فالعمل المنزلي وهي صديقان منذ زمن بعيد.

ـ ولكنني لا أتوقع أن يأخذ هذا مني وقتاً طويلاً، وأنا لن أستطيع الحصول على أجرة سفري منك لقاء عمل أقل من أسبوع.

وجاء دوره في الابتسام، وتلاشت ابتسامتها أمامه:

ـ إذا حدث وانتهى هذا العمل وكنت راضياً عنه، قبل أن تكسبي ما يكفيك، فما من شك بأنني سأوفر لك عملاً مماثلاً.

وتكوّنت لدى كولين فكرة بأنها سوف تتجول في كل بناء مقا على أرض مزرعته، قبل أن تقلع طائرتها في النهاية إلى انكلترا وهي التي كانت تظن بأن والدها مستبد. . . !

●●●

٣ ـ عمل. . . عمل. . .

تقع «دورانغو» على سفوح تلال «سييرا مادري». وهناك كلمة واحدة فقط يمكن أن تصف المنطقة، حيث يمتلك جوليانو انريكو مزرعته، وهذه الكلمة هي: جميلة!

ووصلا إلى «كواريتارو» في طائرة خاصة، ثم استقلا سيارة لحوالي ساعة ونصف بعد أن وصلا إلى عاصمة المقاطعة.

في الصباح التالي، لم يكن لديها أي مزاج للتفرج على جمال المنطقة، وهو يقود السيارة باتجاه منزل المدير الجديد للمزرعة، أو لتكون ممتنة للظروف التي أتاحت لها أن ترى هذا الجمال الرائع، فكل ما كانت ترغب به، أن تخرج من هنا، بأسرع وقت ممكن.

رب عملها، كما تنظر إليه الآن الجالس إلى جانبها، بدا وكأن ليس لديه ما يقوله لها. وبالكاد كان لطيفاً معها منذ أن وافقت على العمل عنده. ونظراً لهذه الظروف فضّلت أن تبقى باردة معه. . فالأشياء التي قالها عن رايان لا تزال تؤلمها، والأشياء التي قالها وفكّر بها عنها ليست مشجعة كي تتخلى عن تحفظها الذي نما معها.

وتذكرت لحظة وصولهما يوم أمس: كيف التفتت لتحضر حقائبها ولكنه قال لها:

ـ اتركيها فسوف يوصلها أمادو إلى غرفتك.

ثم دخل إلى منزله، تاركاً إياها تتبعه بسرعة، خوفاً من أن تضيع

بعد أن دخلت ممراً يقود إلى العديد من الاتجاهات. ونادى:

- تينا!

وظهرت امرأة فوق الخمسين بسنوات، لون بشرتها بني فاتح، كانت كولين قد قرأت أنه يتولد من امتزاج الدم الهندي الأحمر والإسباني، وهو يختلف عن بشرة جوليانو انريكو، الذي كان بلون برونزي.

وتخلى رب عملها عن خشونته وهو يتحدث مع تينا بالاسبانية، والتقطت كولين كلمة «سنيوريتا»، وتأكدت أنه يتحدث عنها، ثم التفت ليقدمهما لبعضهما، وبعد أن تصافحتا أكد لها ما كانت تظنه من أنه يتحدث عنها:

- تينا لديها غرفة جاهزة لك. وستأخذك إليها، نحن سنتناول العشاء بعد نصف ساعة.

وكانت على وشك اللحاق بتينا، عندما استوقفتها كلمة «نحن» ولم تعجبها الكلمة، فسألته:

- وهل سأتعشى مع باقي الموظفين؟

فنظر إليها بهذا التكبّر الذي تكرهه تماماً:

- سوف تتناولين وجباتك معي.

- ولكن...

- وجودك في المطبخ مع تينا سوف يحرجها.

وأدركت أن عليها أن تتعلم الكثير بعد عن العادات المكسيكية. بما أنها خادمة هنا فلماذا سيحرج وجودها في المطبخ أي أحد. شيء واحد تعرفه الآن. لقد اكتفت تماماً من تصرفات هذا المستبد ليوم واحد! أن تجلس عبر الطاولة في مواجهته، فهذا أمر غير مستعدة لتحمله، فقالت:

- ارجو أن تعذرني سنيور.. ولكنني لست جائعة.

- ولكنك أكلت القليل عند الغداء.

- شهيتي دائماً ضعيفة.

وتفرّس بها من فوق لتحت، وانتظرت تعليقاً ساخراً حول نحافتها. ولكنه أثبت أنه سيد المفاجآت، فقد فاجأها بقوله ببرود:

- اذهبي مع تينا، إنها لا تعرف الانكليزية، وإذا احتجت لشيء فتعالي إليّ.

واستدارت كولين مبتعدة عنه، سوف تستطيع تدبير أمرها دون الاضطرار للجوء إليه، ولكن إذا كان لا يطيق حتى النظر إليها، فلماذا يقترح عليها أن تراجعه؟

الغرفة التي اصطحبتها إليها تينا، كانت بيضاء، باردة، والهواء الناعم يتدفق من النافذة المفتوحة، وفيها سرير كبير على الطريقة المكسيكية، ولم تمكث معها تينا أكثر من ثواني، وتلقّت منها الشكر دون أن تبتسم «غراتسيا تينا» وأجابتها بأدب بالاسبانية: «عن إذنك» وتركتها.

بعد خروج تينا، تفحصت الحمام الملحق بالغرفة، ولم تستطع إلا أن تفكر بأن هذه الشقة فخمة جداً بالنسبة لخادمة للسنيور. ولكن يا إلهي كم هي تعبة! لقد أرهقها التعب عند وصولها إلى أرض المكسيك، وفكّرت أن حماماً سينعشها فدخلت إلى الحمام وأغلقت الباب وراءها.

بعد خروجها من الحمام الذي أنعشها، لاحظت أن حقائبها قد أدخلت إلى غرفتها. وعندما أنهت فتح الحقائب وتفريغها أحسّت بالتعب ثانية، وقررت أن تنام. ولكنها اكتشفت أن مفاجآت هذا اليوم لم تنته بعد.

فقبل أن تصل إلى السرير، سمعت قرعاً على الباب، ففتحته لتواجه وجه تينا الجامد وهي تحمل صينية، لا بد أن جوليانو انريكو

قد أرسل لها العشاء بقصد أن يجعلها تسمن، فأخذت الصينية. اهتمامه هذا قد يعود إلى أنه يريد منها أن تنفذ عمل يوم الغد أكثر من رغبته في رؤية المزيد من اللحم عليها.

أوصلتهما رحلتهما بالسيارة إلى منزل بدا مهجوراً، وكأنما لم يسكنه أحد منذ سنوات. وخرجت من السيارة وتبعته. وقال لها باختصار عندما تركته لتدخل إلى المنزل:

ـ خذي هذا.

فاستدارت كولين. «هذا» كان صندوق كرتون، وأخذته منه، ثم وقفت تنتظر بينما كان يخرج صندوقاً أكبر وأثقل، وسلة طعام للنزهات، ثم تناول مكنسة طويلة اليد لم تلاحظ وجودها من قبل، وقال لها:

ـ أظن أن لديك هنا كل أدوات التنظيف التي ستحتاجينها.

ونزع القفل الخارجي عن باب المنزل الذي يعلم الله وحده ما يجاوره، فهي لم تستطع أن ترى منزلاً آخراً على مدى النظر.

نظرتها الأولى إلى داخل المنزل جعلت معنوياتها تهبط. فالمكان قذر جداً! وهي التي كانت تظن أن بالإمكان تنظيفه في أقل من اسبوع! واستمرت تفكر بينما كان جوليانو يتجول بها من غرفة إلى غرفة دون أن ينبس بكلمة واحدة: ستكون محظوظة إذا استطاعت انهاء عملها فيه، كما تريد، قبل شهر!

وقالت معلّقة:

ـ مما رأيته من البيت يبدو أنني سأكسب ثمن تذكرة سفري بمشقة.

وكانا قد وصلا إلى المطبخ حيث لاحظت الشحوم والأتربة على الطباخ الذي بدا أنه لوحده بحاجة لأيام لينظف.

وظنت أنها رأت الاشمئزاز في عينيه، ولكنها لم تستطع معرفة ما

إذا كان هذا بسبب حالة المكان أم بسببها. مع أنها لاحظت نوعاً من الاعتذار في كلامه عندما قال:

ـ لقد استخدم اللصوص هذا المنزل كمقر لهم لعدة أسابيع بعد هروب ساكنيه منه.. سآتي لآخذك عند الساعة الرابعة. ابدأي العمل.

وأين ستبدأ؟ المكان كله قذر. وعادت تجوب الغرف ثانية، الأوساخ منتشرة في كل مكان، المفروشات فيه والتي عرفت في الماضي يداً حنونة تعنى بها، أصبحت الآن باهتة، لا حياة فيها، قذرة وملطخة بالبقع...

وبدأت كولين..

الإرهاق كان رفيقها بعد أن أنهت الكنس من فوق إلى الأسفل، وهاجمتها نوبة سعال اضطرتها للتوقف.

ذكرى ما قاله المستبد «هل أنت خائفة من تلويث يديك» كان يحفز في أعقابها ويجعلها تتحرك لتعمل في وقت كانت بأمس الحاجة للجلوس. ولملمت الأوساخ التي كنستها، ثم فتحت الباب الخلفي.

واستقبلتها أشعة الشمس البراقة، فتركت الأوساخ في الخارج وتجولت قليلاً حتى وصلت إلى ناحية بدا لها أن الغسيل الاسبوعي يجري فيها. كان هناك مغسلتان كبيرتان وعميقتان، ولكن لا يوجد مياه ساخنة، وقاومت شعورها بالتعب، وصعدت إلى الغرف العليا وأنزلت الستائر من مكانها وحملتها إلى هناك لتضعها في الماء.

بعد إن أنهت غسيل الستائر، خلال بضع ساعات، شعرت بأنها على وشك الانهيار، وأصبحت حركاتها ثقيلة. وأعادت اقفال الباب الخلفي، ونظرت إلى ساعتها، ثم جلست.

وتمسكت بذراعي المقعد الخشبي تحتها وأخذت الدنيا تدور

بها، وفكرت بأنها قد تشعر بحال أفضل لو أحضرت الطعام من السلة لتأكله، ولكن الفكرة جعلتها تشعر بالغثيان.

كان يجب أن تستريح لبعض الوقت، فرفعت قدميها على المقعد، الطابق العلوي بدأ يأخذ شكلاً محدداً، وسوف تركز على العمل هناك هذا الاسبوع. وهذا بالطبع يعني، عندما يحضر جوليانو بوجهه المتجهم عند الساعة الرابعة سيظن بأنها لم تفعل شيئاً طوال اليوم سوى الكنس في الغرف السفلى، ولكنها تعرف أن شكوكه سوف تدفعه لتفحص المكان، وسيعرف عندها أنها لم تتوقف حتى لتناول الغداء.

وأجفلت، بعد أن أدركت أنها لا بد قد غفت لثوانٍ، وفتحت عينيها. وعلا الدم إلى وجهها، ونظرت إلى ساعتها بسرعة، ثم إلى الوجه المتجهم للرجل الذي دخل بصمت بينما كانت تغفو!

فشهقت قائلة:

ـ أنا... إنها الثالثة والنصف فقط!

ـ وأنت، أيتها الكسولة المثالية، لم تكوني تتوقعين قدومي قبل الرابعة.

ـ ولكن.. أنا..

ولاحظت أنه غير مهتم بتفسيراتها، وغير مهتم بالبحث عن أثر مما تراه عيناه حوله، وقال بحدة:

ـ تعالي..

وبدا أنه سيجذبها من مكانها بالقوة إذا لم تقف. وقال ساخراً:

ـ إذا كنت ستعملين بنفس السرعة التي عملت بها اليوم فلن تكسبي ثمن تذكرتك أبداً، كولين شادو.

عندما وصلا إلى المنزل كان غضبها قد انخفض قليلاً. وصممت أن تعمل في الغد إلى أن تنهار، كي تستطيع مغادرة هذا المكان

المعادي في أقرب فرصة.

ودخلت المنزل من باب المطبخ لتضع سلة الطعام. والتفتت فتاة في مثل سنها من غسل الصحون، وكانت طفلة سوداء الشعر تتعلق بها، فدفنت الطفلة وجهها في تنورة الفتاة على الفور.

وتوقف جوليانو، فاضطرت كولين للوقوف أيضاً. وسمعت ذكر اسم تينا وهو يتحدث إلى الفتاة، وكلمة «سيستا» وخمّنت بأنه يسأل ما إذا كانت تينا ترتاح. وأجابته الفتاة:

ـ سي سنيور.

ـ بونيو.

وانتبه عندها فقط أن كولين معه فقدّمها للفتاة، ايما، وطفلتها بيللا، وابتسمت ايما على الفور وهي تصافح كولين، وشعرت بحرارة مصافحتها، وازدادت حرارة ابتسامة كولين عندما مدّت الطفلة يدها لها، حسب تعليمات أمها، فالابتسامات تتخطى حواجز اللغة، وكررت الفتاة وراء أمها: موتشو غويستو سنيوريتا (مسرورة كثيراً يا سنيوريتا).

وكانت كولين تستقيم في وقفتها بعد انحناءها لمصافحة اليد الصغيرة، عندما التقت بعيني جوليانو اريكو يحدّق بها، فاختفت ابتسامتها، فقد فهمت تفكيره بأنه يجد صعوبة في الربط بين الفتاة الكسولة التي وجدها نائمة أثناء عملها وبين الفتاة التي بدت مسرورة لقضاء وقتها مع ابنة الخادمة... واعتذرت من الفتاة، ثم غادرت المطبخ.

وساعدها الحظ فقط، وليس الحكم السليم لكي تجد طريقها إلى السلم ثم إلى غرفتها، فهي '. تعتمد بعد على المنزل. ولاحظت فجأة أنه هنا، وإلى جانبها.

وتوقفت، فهو ليس ذاهباً إلى غرفته، فقد توقف أيضاً. وأحست

بالقلق. وحاولت أن تسيطر على الغضب الذي يجتاحها فقد توقعت أن تسمع منه تعليقاً لا يرضيها وفكّرت بأنه لو قال كلمة واحدة عن العمل الضئيل الذي يظن بأنها قامت به اليوم، فسوف تصفعه. وأخذ الغضب يتصاعد أكثر وأكثر في نفسها بينما كان يتفرس بها. ثم قال بشكل فاجأها، وهو رجل المفاجآت:

- يبدو عليك التعب. هل أقترح عليك أن تفعلي مثل تينا وترتاحي قليلاً؟

وذهلت لهذا التحول، حتى كادت أن تقتنع بأن توافق معه، ولكنها لم تستطع أن تنسى بسرعة أنه دعاها «الكسولة المثالية»، وهذا ما زال يحز في نفسها حتى أنها لم تشكره على اقتراحه. بل قالت متسائلة ببرود:

- وهل هناك شيء آخر؟

وشاهدت البرودة تعود إلى عينيه، ومع ذلك لم تندهش عندما أضاف:

- العشاء عند الثامنة.

- مع معرفتي اني أكرر نفسي.. أنا لست جائعة.

وظنت عندها أن كبرياؤها أثاره بقدر ما أثارها كبرياؤه. والوميض السريع في عينيه أثبت أنها ليست مخطئة. كذلك الطريقة التي اشتدت بها قبضته اليمنى، وعرفت بأنه أيضا يود لو يصفعها. وردّ عليها بصوت بارد:

- إذاً.. نامي دون عشاء. لقد تناولت وجبة جيدة اليوم، ولا أنوي الطلب من تينا أن تحضّر لك الطعام وتحمله إليك.

وابتعد عنها، قبل أن تتمكن من الرد عليه.

في الصباح التالي، عملت حتى بللها العرق، وفكرت بأن عليها أن تكون ممتنة لأن تجد كل يوم مشمس مثل اليوم الذي سبقه.

ولكنها أحسّت بالحر الشديد، وهي تمرر المكواة جيئة وذهاباً فوق الستائر، التي غسلتها في اليوم السابق. وعاودها الإرهاق الذي أصبح الآن مألوفاً لها، بعدما انتهت من الكوي، واتجهت نحو السلم لتنزل إلى المطبخ وتحضر ما تبقى من الستائر المنشورة على الحبال.

خطواتها كانت تعبة وبليدة، وصامتة، وغير قادرة على الاستعجال، وعندما وصلت إلى الردهة السفلى أحسّت بالصدمة. فالرجل الواقف هناك وظهره إليها هو جوليانو انريكو، لم تكن تعرف كم هي الساعة الآن، ولماذا لم تسمع صوت سيارته، ولماذا لم تسمعه يدخل المنزل.

وبدأ يستدير، فنصبت كولين قامتها، ورفعت كتفيها عالياً، ولم يفتها أنه كان يتفحص ما فعلته اليوم، أو ما لم تفعله بعد، لأنها كانت قد قررت أن تترك العمل في المطبخ إلى النهاية.

- لقد عدت للعمل بجهد ثانية، كما أرى.

- نحن الكسولات المثاليات معروف أننا لا نتحرك بسرعة البرق!

- هل أزعجتك تلك الملاحظة؟

وتفحصت عيناه الزرقاوان شكلها المشعث، يبدو أنه يظن بأنها كانت نائمة في الطابق العلوي. وأنها جاءت عندما سمعت صوت وصوله، فتابع ساخراً:

- من المؤسف أنها لم تزعجك بما فيه الكفاية كي تخرجك من كسلك.

- هل لكل المكسيكيين هذه الشخصية اللطيفة، أم أن سحرك لا مثيل له؟

كم تحب أن ترى وجهه عندما يشاهد ما فعلته في الغرف العلوية. وتمنت لو أنه يفعل، ولكن أمنيتها ذهبت أدراج الرياح..

وقال لها بحدة وهو يحمل سلة الطعام التي لم تلمسها:

ـ غداً أتوقع أن أرى بعض التقدم.

ـ وأية عقوبة سأتوقع إذا لم يحدث هذا؟

وكان جوليانو يسير باتجاه الباب الخارجي، ولكن لدى سماع كلماتها، استدار ونظر إليها. وعلمت عندها أنه نوع من الرجال من الحكمة الابتعاد عن الصدام معه.

ـ لقد تغاضيت عن كسلك لأنني ظننت أنك تحتاجين إلى يوم أو اثنين لتعتادي على الطقس، وقد مضى عليك الآن ما يكفي في بلادي. وأنا لا أرغب بالاحتفاظ بك لتزين هذا المكان.. وغداً سنيوريتا شادو، سوف تبدأين العمل الفعلي.. حتى لو اضطررت للبقاء هنا للإشراف على عملك.

ـ وماذا فعلت في حياتي لأستحقك؟

وتجاهلها وتقدم نحو الباب وفتحه، ثم قال:

ـ وهل أنا بحاجة لأن أقول لك إنك من جلبت هذا لنفسك لأنك جشعة مثل أخيك؟

ونظرت إليه نظرة جارحة، وهو يقفل الباب.. يا إلهي كم تكرهه! وبصمت جلست إلى جانبه، وأدار السيارة وقادها بصمت. وكانا على وشك الوصول إلى المنزل عندما نظرت إلى معصمها بشكل آلي لتعرف الوقت، فصاحت:

ـ ساعتي! لقد تركتها في الطابق العلوي هناك.

ولأنها لم ترد أن يمن عليها بعودته لجلبها، أضافت بسرعة:

ـ لا يهم.. سآخذها في الغد.

ـ وهل ظننت أنني سأعود لأحضرها لك؟

ـ ما أظنه بك سنيور قد يحوّل الهواء إلى اللون الأزرق، لو سمعه أحد.

وأحسّت بالغضب عندما أدركت أنه بدلاً من أن ينزعج من كلامها استقبله بشيء من السرور.

ـ لا بد أنني أثرت فيك يا سنيوريتا، مهما كان نوع تفكيرك بي.

وخرجت من السيارة بسرعة، وأدركت بعد أن فاجأتها لحظة دوار، أنها لم ترد عليه بعد، وأمسكت بمقبض الباب، وحققت ما تريده بقولها له:

ـ وأنا لا أريد تناول العشاء معك الليلة أيضاً، فأرجوك لا تطلب مني هذا.

ـ لم أكن أنوي أن أطلب.

وسيطرت على أعصابها، ولكن عندما أصبحت داخل غرفتها انهمرت الدموع من عينيها، وكل ما استطاعت عمله، أن جرت نفسها إلى الفراش واستلقت. لم تكن قد شعرت بمثل هذا التعب في حياتها. وتركتها ملاحظاته الجارحة في حالة من الانهيار الجسدي والمعنوي.

وسيطر عليها النعاس الشديد، وكانت تعبة لدرجة أنها لم تخلع نعليها. فدفعتهما واحدة واحدة، وتركتهما يقعان على الأرض.

وبدا لها أنها لم تنم سوى دقيقة واحدة عندما سمعت صوتاً في غرفتها. وأرادت أن لا تفتح عينيها، وأن تستمر في النوم. ولكن عقلها عارضها وجعلها تفتح عينيها لترى جوليانو انريكو يقف ناظراً إليها:

ـ لا عجب أنك تعبة يا كولين. لقد أتت ايما لمقابلتي..

ـ ايما؟

ـ لقد كانت قلقة، فعندما أفرغت محتويات سلة الطعام، وجدت أنك لم تتناولي سوى القليل من العصير وبعض الدجاج، وهذا كل ما دخل معدتك اليوم.

ـ لم . . . أكن جائعة .

ثم أخذ عقلها يعمل . . إنها تبدو خاضعة ومعتدلة أكثر من اللزو
ولو استمرت على هذا الحال، فسوف تعود إلى الاستسلام دو
جدال. تماماً كما كانت تتراجع عن المواجهة مع والدها . . فبدأ
تستجمع قواها وتضيف بعض الحيوية إلى الشخصية الجديدة الت
تحب أن تكونها .

ثم أضافت بحدة :

ـ على كل الأحوال أنا لست مجبرة على تناول طعامك إذا ل
أكن أرغب به .

ـ ألهذا السبب لم تأكلي شيئاً يوم أمس أيضاً؟

وبدا الآن أنه يعتقد أن فقدان شهيتها كان متعمداً . وقال إن ا
أخبرته بأنها لم تأكل يوم أمس أيضاً، وتابع :

ـ حسناً . . دعيني أقول لك شيئاً سنيوريتا . لقد أتيت بك إلى ه
لتعملي . . . ولكي تعرفي أنك لن تحصلي على شيء دون مقابل
ولكي تتعلمي الربح عن طريق العمل الشريف .

ـ بكلمات أخرى . . من أجل فائدة نفسي .

ـ سوف تلوثين يديك، ولا تكوني مخطئة حول هذا الأمر، لذا
كنت تفكرين بتجويع نفسك كي تكسبي العطف عندما تنهارين م
نقص التغذية، ففكري بالأمر ثانية، ستأكلين ولو اضطررت إ
إطعامك بالملعقة بنفسي . . أفهمتِ هذا؟ أنت تعرفين موعد تناو
العشاء .

ونظر إلى معصمها الفارغ، وخلع ساعته ورماها على السري
وبقي شيء واحد ليرميه في وجهها . فصاح :

ـ وكوني هناك!

●●●

٤ ـ لا تكن قاسياً!

ظلت كولين جالسة في مكانها فترة طويلة، بعد أن خرج جوليانو. ونظرت إلى الساعة التي رماها لها. كانت ساعة ثمينة، كما لاحظت دون كثير من الاهتمام، ولكنها كانت تقول لها إن أمامها أقل من ساعة لتقرر إذا كانت ستنضم إليه على المائدة هذه الليلة.

كانت تعلم لماذا يريد أن يجبرها على تناول الطعام. فهو يريد أن ينجز عقابه لها. وهو يعلم جيداً أنها إذا لم تأكل، فلن يكون لديها الطاقة اللازمة كي تختبر «العمل الشريف» . . إنها لا تشعر بالجوع فعلاً، وليس لديها شهية، وهذا واقع واضح. ولكن هذا المستبد المكسيكي المتغطرس لن يتقبل هذا.

وتذكرت نظرته إليها عندما كانت تستيقظ، ولكنها لم ترغب في أن تتذكر أنه لم يكن هناك أي قسوة في عينيه، بل شيء قريب من الدفء. الدفء! وضحكت. . هذا مستحيل. ومع ذلك فقد كانت هناك فكرة تقول لها إنه يستطيع أن يحادثها دون أن يحاول إهانتها.

وكأنما استيقظت فعلاً الآن . . . فنزلت عن السرير وذهبت لتنظر خارج النافذة. وتأملت طويلاً شجرة الخوخ التي تنمو خارج غرفتها تماماً.

ثم تحركت نحو خزانتها، وهي تشعر بكراهية أكثر لـه، سوف تتناول العشاء معه، إذ يبدو أنها مجبرة. ولكن، إذا كان يظن بأنه سيتنعم طويلاً مفكراً أنه هزمها، فعليه أن يفكر ثانية!

عند الثامنة تماماً، حسب ساعة جوليانو التي في معصمها، تركت الغرفة. واثقة أن فستانها الطويل دون أكمام يناسبها تمـاماً، فقد أخبرتها المرآة بهذا.

وتوقعت أن تشاهد رفيقها لا يزال غاضباً كما رآته آخر مرة، ولكنها أخفت دهشتها عندما حياها بإيجابية أكبر.

ـ هل ترغبين في شراب قبل الطعام يا كولين؟

إذاً.. لقد عادت «كولين» ثانية، وخلعت الساعة وأعطتها له:

ـ لا.. شكراً سنيور.

ـ اسمحي لي إذاً أن أرافقك إلى غرفة الطعام. تينا تنتظر أن تقدم العشاء.

كان وجه تينا دون ابتسام عندما صبت لها الحساء في طبقها. ولم تكن كولين تنتظر أن تبتسم لهـا، ولكن على الأقل أن تبتسم لمخدومها، وهذا ما لم تفعله.

ورغم أنها لم تكن تشعر بالجوع، فقد رفعت ملعقة من الحساء إلى فمها. وكان الحساء لذيذاً. وتناولت ملعقة أخرى، ثم دخلت تينا ثانية ومعها طبق نسيت وضعه على المائدة، وسمعت جوليانو يقول لها شيئاً بالإسبانية، وأحست أن شهيتها قد غادرتها بعد أن شاهدت تينا تبتسم وهي ترد عليه. فوقعت الملعقة من يدها.

ـ ألم يعجبك الحساء؟

إن له عينا صقر تراقبانها! وردّت عليه بأدب:

ـ الحساء لذيذ.

ـ لماذا لا تتناولينه كله إذاً؟

ـ لأن شهيتي للأكل ضعيفة، لقد قلت لك هذا. أظن أن عليّ ترك المجال لما سيتبع الحساء.

ما تبعه كان أشهى لحم مشوي «ستيك» عرفته، قُدمت معه السلطة. فقالت قبل أن تستطيع التراجع:

ـ لقد كنت أظن أن الطعام المكسيكي يقدم عادة مع الكثير من الفلفل الحار.

ـ وأنا ظننت أن الأفضل لك أن تأكلي الطعام الذي تعودت عليه، طالما أن شهيتك بحاجة لتشجيع.

ـ وهل جعلت تينا تحضر وجبة إنكليزية خاصة لي؟

ـ كانت مسرورة لهذا. ولقد هنأتها على الحساء على الطريقة الانكليزية.

إذاً لهذا ابتسمت له تينا، فكل موظف يحب أن يمدحه رب عمله على عمله الجيد. لكنها يجب أن تنتظر طويـلاً قبل أن يمدح عملها. بالطبع هي ليست بحاجة لمديحه.. ولاحظت أنه يراقب عدم تحرك السكين والشوكة في يديها، فقطعت قطعة صغيرة من اللحـم. لقد تعبت تينا كي تحضر هذا الطعام الخاص، لذا، ومن أجلها، وضعت قطعة اللحم في فمها.

ـ أخبريني شيئاً عن حياتك في انكلترا يا كولين.

كانت تتوقع وجبة طعام دون كلام، فأدهشها سؤاله ولكنها أجابت بأدب:

ـ ليس هناك الكثير لأقول لك سنيور.

ـ إذاً أخبريني عن القليل الموجود، وناديني جوليانو بالمناسبة. لقد قلت إنك لم تكوني تعملين في انكلترا؟

- آه.. لا..

كانت لا تزال مستغربة لتنازله من عليائه وطلبه منها أن تناد
باسمه الأول، وخاصة أن باقي عمّاله يدعونه «السنيور».

- حسناً.. أنا..

وسعلت. وتملكها الرعب من أنها سوف تستغرق في إحد
نوباتها حتى تدمع عيناها وتتقطع أنفاسها. ولكن هذا لم يحدث
وابتسمت له بارتياح:

- لقد عشت في منزل كبير للغاية مع والدي.

ولم تعد تبتسم، إذ أنها لم تتذكر فقط كم كان والدها مث
للمشاكل معها. بل أيضاً كيف أنها وهي في الثالثة والعشرين ق
اختصرت كل حياتها بهذه الكلمات القليلة. لقد عاشت في ذل
المنزل الذي يشبه القبر الضخم مع والدها، وهذا كان كل حيا
ووجودها! وأخرجها سؤال جوليانو التالي من أفكارها البائسة:

- ألم يكن لديك أم؟

- لا.. لقد توفيت وأنا في السابعة.

- وهل سيكون والدك وحيداً دونك؟

بوجود آغي باركر أو بدونها، فهو لن يشعر أبداً بالوحدة. و
يكون أكثر سعادة لو علم أنها اختفت عن وجه الأرض. لن يفتقد
أحد.

- سوف يتزوج ثانية عن قريب.

- أوه.. لهذا إذاً قررت ترك انكلترا.. فأنت لم تحبي زوج
المستقبلية.. أنت تغارين منها.

أغار منها! كم هو مخطئ»، فوصول آغي باركر أتاح لها فر
الخلاص. إنها لا تحبها، ولكن ليس بدافع الغيرة، وستكون د

ممتنة لها، فبسببها حصلت على حريتها.. وتطلعت بالرجل الذي كان يتفرس بها ومنعت ضحكة هستيرية من الانطلاق.. أية حرية هذه! فعندما تكون تذيب أصابعها حتى العظام في العمل لهذا المستبد، فهي ما زالت عبدة له كما كانت لوالدها.

- ظننت بأنك اتخذت قراراً حول سبب مغادرتي انكلترا، ولا تقل لي إنك غيّرت رأيك واقتنعت الآن أنني لم أجيء إلى هنا لأنشب مخالبي فيما قد أستطيع الحصول عليه؟

وأحسّت فجأة بأنها اكتفت، وغادرتها شهيتها، فوقفت.

- ولكنك لم تنهِ طعامك بعد.

ووقف بدوره. وطوله الفارع يغطي عليها وهو يمنعها من الخروج، القسوة في عينيه ذكّرتها بايزابيلا وكيف هجرها شقيقها المخادع، ونظر إلى قطعة اللحم التي لم تنهها بعد ثم عاود النظر إليها، فقالت بعناد:

- لقد أكلت كل ما أستطيعه.

وعلمت بأنه سيجبرها لتعاود الجلوس إذا لم تفعل بنفسها.

- إذا تناولت المزيد سوف أحسّ بالغثيان.

واختفت قسوته فوراً. ومدّ يده ليمسك بذراعها ويسندها قائلاً:

- وهل أنت مريضة؟ لقد فكرت من قبل بشحوبك...

وردّت عليه بجفاء:

- لم أشعر بأنني أفضل حالاً في حياتي. ولكنني سأشعر أفضل بعشر مرات لو تركت ذراعي وسمحت لي بالذهاب إلى غرفتي.

وهي تتكلم كانت تفكر أن ليس هناك أمل بأن يفعل ما طلبت منه، لذا، وعندما ترك ذراعها، وقفت دون حراك، بينما أخذت عيناه الزرقاوان تتفحصان شحوب وجهها.

ـ لا يبدو عليك . . .

ـ ليلة سعيدة يا سنيور.

ولم ترغب في البقاء لحظة أخرى لتسمع ما سيقول حتى لا يغير رأيه. وتجاوزته لتخرج، فناداها:

ـ كولين!

وتوقفت عند السلم، وأبقت ظهرها إليه حتى لا يرى عينيها المبللتين بالدموع، فتابع:

ـ سنخرج في وقت متأخر غداً صباحاً.

وأخذت تفكر وهي مستلقية في الفراش، من أين ستجد القوة اللازمة لتعليق الستائر في الغد.

وأيقظتها نوبة سعال في الليل، وتركتها مقطوعة النفس تشهق. يجب أن يكون سعالها قد تلاشى الآن، ولكن بما أنها منزوية لوحدها داخل ذلك المنزل فهي لم تتعرض كثيراً للشمس التي أمرها الطبيب أن تعرّض نفسها لها.

وأرهقها السعال، فاستلقت ثانية، وبدأت على الفور بالسعال من جديد، وأحسّت بالتعب، فجلست في الفراش وهي مبللة بالعرق.

فرفعت الأغطية عنها، وقد شعرت بحاجة ملحة لبعض عصير الليمون الساخن، فهذا قد أوقف السعال من قبل، سوف تنظف كل شيء من ورائها ولن تحس تينا بأنها كانت في المطبخ. واستندت إلى باب غرفتها محاولة إيقاف السعال قبل أن تفتحه.

وغطت فمها بيدها، وذهبت إلى المطبخ حيث أضاءت النور وأغلقت الباب، ولكن قبل أن تبحث عن الليمون جلست قليلاً، وأحسّت بالتعب والإرهاق، وبالسرور لأن أحداً لا يراها وهي على هذا الحال. كرامتها تطالبها بأن لا يعرف جوليانو أي شيء عن

هذا، فسيقول بأنها تسببت به لنفسها لأنها لا تأكل جيداً، وشعرت برأسها يدور.

وأجبرت نفسها على ترك الكرسي، فهي بحاجة إلى قدر ما تستطيع من النوم كي تكون مستعدة لعمل الغد، ولكنها لم تبتعد سوى خطوات عندما فتح الباب وراءها فالتفتت بسرعة.

ومن خلال نظرها الغائم رأت الرجل الذي لم ترد أن يعرف ما يحدث لها ليلاً، ولكن كلمة «يا إلهي!» التي خرجت منه بعد أن رآها أعطتها فكرة بأنه لم يكن سعيداً بما رآه.

وبدأت تترنح، ووجدت راحة كبيرة عندما، وبخطوة واسعة، وصل إليها وأمسك بها، وتعلقت به بضعف، وأسندت جسدها عليه إلى أن أحسّت أن الدنيا من حولها تعود إلى طبيعتها، وعلمت بأنها لم تعد مهددة بالإغماء فحاولت التحرك، ولكنها لم تستطع، فبقيت متعلقة به ونسيت أنها لا تريده أن يعرف حالتها.

ـ لقد. . أتيت إلى هنا. . لأحصل على. . . بعض الليموناضة. . . الساخنة. . السعال لا يتوقف. . .

وتلعثمت بآخر كلمة قالتها، وانهارت ثانية، وعادت تسعل السعال القاسي الجاف. وكان جسدها مليئاً بالعرق، حتى أن ملابسها أصبحت مبللة، ثم تحرك الكتف الذي عادت للاتكاء عليه، وأبعدها قليلاً لينظر إلى وجهها المجهد، وفيما هي تقول له: «أنا آسفة» لاحظت أن لا قساوة في وجهه.

وظنت كولين أنها تهذي عندما شاهدت فمه يتحرك وكأنه يبتسم. . هل يبتسم لها؟ ثم بدأت يداه القويتان تحركانها نحو الكرسي، وقال لها:

ـ اجلسي هنا قليلاً يا كولين.

كان صوته ناعماً، رقيقاً لطيفاً جداً حتى أنها ظنت بأنها تحلم، فهو لم يكلمها أبداً بمثل هذه الطريقة من قبل. وجلست حيث قال. لأنها بكل بساطة لم تكن تملك القوة الكافية لفعل شيء آخر. وراقبت الطريقة الفعالة التي تعامل بها مع الليمون والسكر والماء، ثم وضعها في وعاء فوق النار، ومع أنها كانت تحس بالدوار فقد كانت أكيدة أنها لا تتخيل أن هذا المستبد يحضر لها شراب الليمون الساخن الذي تحتاجه. وقال لها مبتسماً:

- لن أتأخر عليك.

وتركها وخرج، ولم يتأخر، ولكن عندما عاد كان السعال قد تملكها ثانية، ولم يضع أي وقت في فحص حرارة محتويات الوعاء على النار، أو في صبّه في كوب وإعطاءه لها:

- اشربيه على مهل.

واحسّت بالراحة فوراً. وكان مريحاً جداً لحنجرتها المجروحة، فهمست:

- شكراً لك.. أنا بخير الآن، ولكن هل لي أن آخذ بعضاً من الشراب معي إلى الغرفة؟

- ساضعه لك في ابريق.

- لا داعي لذلك.

وكل ما حصلت عليه من رد كان ابتسامة، وظنت أنه لن يحضر الابريق لها، فحاولت صب كوب آخر لتأخذه معها، فقال لها بسرعة:

- اتركيه يا كولين.. سوف أجلبه إلى غرفتك.

وكانت بحاجة لكل قواها كي تصعد السلم، فوقفت وساقاها ضعيفتان، فقال:

- هل أنت مستعدة للعودة إلى فراشك؟

- نعم.. شكراً لك يا جوليانو.

ولكنها ما إن خطت خطوتين على السلم حتى شعرت بأن ذراعيه أصبحا حولها، ولم تدرك إلا وقد حملها إلى فراشها، وقال لها بلهجة ناعمة:

- أعتقد أن هذه الطريقة أسرع.

واحسّت بالارتباك، ربما المرض يظهر أفضل ما لدى الرجل. مع أنها ليست مريضة، بل تشعر بالانزعاج من السعال الذي يستغرق وقتاً طويلاً ليتركها، وكانت تشعر بالدوار وهو يفتح الباب، ورأسها مرتاح إلى صدره ووضعها بكل لطف في فراشها وسألها:

- هل تستطيعين تدبير أمرك لوحدك؟

- أوه.. أجل.. أنا أفضل بكثير الآن.

ولأنه أصبح جوليانو انريكو جديد أمامها، شخص يبتسم لها، فقد ذاب كل تحفظها التقليدي. وابتسمت له بدورها.

- سأذهب الآن لأحضر لك الليموناضة.

كانت تفكر بأنها ستنتظر عودته، ثم خروجه من جديد، كي تغير ثوب نومها المبلل بآخر جاف، عندما شاهدت أنوار سيارة تصل وتنعكس على نافذتها، وتساءلت من يكون هذا الزائر الليلي يا ترى؟ أم أنها تتخيل هذا كما تخيلت سرور جوليانو عندما نادته باسمه الأول؟

وعندما عاد جوليانو وفي يده كوب الليمون، لم يكن لوحده، وأوضح لها قائلاً:

- هذا صديقي الدكتور بريغادينو.

- دكتور؟ ولكنني لا...

- لست بحاجة لدكتور.. لقد اكتشفت فيك يا كولين شادو، التصميم على عدم الاستسلام. واسمحي لي، بما أنني الرجل الذي سيكون مسؤولاً عنك خلال إقامتك في بلادي، أن أعرف ما هو الأفضل لك.

ولم يكن هناك مجال للجدال مع لهجته هذه. وتقدم الدكتور من فراشها ليفحصها، ولكن جوليانو استرعى انتباهها عندما قال:

- سأحضر تينا.

وصرخت «لا..!»، وتركز انتباه الرجلين عليها.

- ولكن راوول سيفحصك.

- لقد سببت ما يكفي من إزعاج، أولاً أخرجتك من فراشك، ثم في منتصف الليل الدكتور بريغادينو. ولن أقبل أن أزعج نوم تينا.

- لا خيار لك في الأمر، إلا إذا قبلت أن أبقى كي أساعدك في خلع ملابسك.

فصرخت بحدة وقد أجفلت للفكرة «لا!»، وعادت النظرة الناعمة إليه وهو يبتسم وغادر الغرفة لإيقاظ تينا.

وجلس الطبيب إلى جانب السرير، وسألها بانكليزية جيدة حول كل المعلومات التي يريد أن يعرفها عن مرضها، ودخلت تينا مسرعة إلى الغرفة.

وبدت كل هذه الجلبة على شيء لا يذكر. ففي غضون دقائق كان الطبيب قد فحصها، وساعدتها تينا في تغيير ملابسها. كل ما بها سعال لا يريد أن ينتهي. وتمنت لو يتركونها بسلام، فهي تعبة ويمكن لها أن تنام لفترة طويلة.

وما إن غادر الدكتور وتينا الغرفة حتى غرقت بالنوم. ولم تعلم بأن جوليانو أمضى دقائق طويلة يتحدث إلى الطبيب، ولم تعلم

أيضاً أنه عاد للدخول إلى غرفتها ووقف يتأمل بوجهها الشاحب، وشعرها الأشقر المتموج المنتشر على الوسادة، ثم أطفأ المصباح الصغير بجانب السرير، وخرج.

وبدا لها كل شيء كالحلم عندما استيقظت في الصباح التالي. ولم تكن متأكدة أن ما حدث ليس حلماً. إلى أن نظرت إلى ما كانت ترتديه مرمياً على الأرض، وشاهدت ابريق الليموناضة. فهل حقاً نادت جوليانو انريكو باسمه الأول؟

تحت ماء الدوش تمنت لو أنها تعرف كم الساعة الآن. وأحست بالانزعاج لأنه سيشرف اليوم على عملها. وتذكرت الطريقة القاسية التي نظر بها إليها عندما رفضت ازعاج تينا من نومها. لا بد أنه سيكون غاضباً جداً إذا لم تسرع في التحرك في عملها.

عندما خرجت من الحمام وجدت جوليانو في غرفتها. كان يقف مستنداً إلى طاولة الزينة، وعيناه تراقبانها. فقالت قبل أن يقول لها أية كلمة قد لا تحب سماعها:

- لقد تأخرت.. أعرف هذا. وأنت تعلم أن ساعتي...

- وماذا تريدين أن تفعلي بحق الجحيم؟

- أنا مستعدة للذهاب إلى العمل.. لم تكن بحاجة لأن تحضر لتأخذني.. كنت على وشك...

- وهل أنا ظالم إلى هذا الحد؟

وتذكرت ليلة أمس، لطفه، الطريقة التي حملها بها إلى غرفتها، والطريقة اللطيفة التي وضعها بها في الفراش. وشعرت بالضعف، ولكن لا يمكن أن تسمح لنفسها أن تضعف أمامه.

- في الحقيقة أجل.. أنت ظالم. وإذا سمحت اخرج من الغرفة لأستعد للذهاب...

ـ المكان الوحيد الذي ستذهبين إليه يا كولين الصغيرة هو إلى الفراش.

كم تبدو هذه الفكرة رائعة! وأرادت بكل يأس أن تستسلم لها ثم فكرت بأنها لن تتمكن بهذه الطريقة من الهرب من تحت سقف منزل هذا الرجل.. فصاحت:

ـ ماذا... وأعطيك الفرصة لتقول بأنني ادّعيت المرض بقصد أن أبقى هنا؟ لا.. هذا مستحيل!

ـ لم أكن أعلم عندها أنك مريضة. لماذا لم تقولي لي؟

ـ يا إلهي.. إنها مجرد انفلونزا.

ـ ولكنك التقطت جرثومة قوية بشكل خاص... وهذا ما عرفه راوول بريغادينو من وصفي له لطريقة سعالك، ومما قلتيه له.

ـ لا شيء في صحتي لا يمكن لقليل من الشمس شفاؤه، طبيبي في انكلترا قال لي.. ولذلك....

ـ وهكذا لقد أتيت إلى المكان المناسب دون شك. وبما أن قدميك ترتجفان، فمن الأفضل أن أضعك في الفراش.

ـ لن أفعل هذا...

واحسّت أنها على وشك الانهيار، فتقدم منها وكأنه يحاول إقناعها ولكنه أمسك بذراعها، وكأنما يريد أن يهزها بعنف فقالت:

ـ لا تكن قاسياً معي!

كانت تشعر بأنها على وشك البكاء ثانية، وخافت أن لا تستطيع منع دموعها فيما لو هزمها، وأجابها بصوت هادىء:

ـ أنا لا أنوي أن أكون قاسياً معك.

ثم جذبها لتجلس على السرير، وجلس بقربها مضيفاً:

ـ راوول قال لي إنك بحاجة لراحة تامة... فاستسلمي يا

كولين، أنت تعرفين جيداً أنك لا تصلحين للعمل.

وأرادت أن تجادله، وأدرك أنها لن تعترف بالهزيمة. ثم رأت الابتسامة على وجهه من جديد، وقال:

ـ استسلمي، أنت تعرفين أنني لن أصطحبك إلى ذلك المنزل ثانية.. هل ستجعليني أعترف بأنني كنت قذراً معك لأنك لم تنجزي العمل الذي أردت أن أراه، في وقت كنت فيه مريضة أمس وقبل الأمس.

ـ ولكنني لست...

ـ ألست مريضة يا كولين؟

ـ بلى...

وابتلعت ريقها، وقد سحرتها فتنته. عندها، وبكل لطف، أخذها بين ذراعيه معانقاً، فاستسلمت، دون أن يكون في ذهنها أي تفكير بالتراجع.

وارتفعت حرارة جسدها حتى ظنت بأنها ستحترق، وتعالى اللون الأحمر إلى وجهها بحيث أنه لا يمكن أن لا يراه حتى ولو كان قصير النظر.

وعاودتها كراهيتها له، وهي تسمعه يضحك للمرة الأولى. ثم توقف عن ضحكه وقال مداعبا:

ـ كولين شادو... لقد تملكك الخجل! لماذا؟ أعتقد أنني أول رجل خارج مهنة الطب يلامس جسدك!

وازداد لونها احمراراً من الخجل، مضافاً إليه شعور بأنه يعتقد أنها من الطراز القديم، ثم قال وكأنه يؤكد ظنه بأنها لم تكتمل أنوثتها:

ـ هيا الآن يا طفلتي.. استلقي في الفراش.. ريثما تنتظر لتحضر لك البيض المسلوق والخبز المحمص على الطريقة الانكليزية.

٥ ـ لن تستطيعي الرحيل!

نامت كولين معظم النهار... كان يقطع نومها لحظات صحو.. تحاول فيها إعادة جمع شتات أفكارها، وتعود تتذكر ذلك العناق الذي تشاركت فيه مع جوليانو انريكو، كان عناق رجل لامرأة، بغض النظر عن أنه عاملها فيما بعد كطفلة.

لم يكن عندها وقت للتفكير لماذا لم تدفعه عنها، ولماذا لم تجد عناقه مزعجاً في وقت كانت تظن أنها تكرهه كثيراً. فكلما كانت تفتح عينيها ويجول هذا الخاطر في ذهنها كانت تجد إما تينا أو ايما تنتظر صحوها.

وعندما استيقظت تماماً، وشعرت بأنها اكتفت من النوم، وبأن طاقتها قد عادت إليها، كانت الشمس قد غابت في الخارج، ولأول مرة هذا اليوم لم تكن لا تينا ولا ايما في غرفتها.

وعادت تفكر بالعناق بينهما، وأدركت عندها، والدماء تدفىء خديها، أنها لن تستطيع مواجهته على طاولة العشاء. هي فقط غير مستعدة بعد لرؤيته.

واكتشفت، سريعاً بينما كانت تسمع وقع خطوات رجالية في الممشى، أن جوليانو ليس من النوع الذي ينتظر دعوة لزيارتها.

وفتشت بسرعة عن فرشاة الشعر، ولم تجد الوقت كي ترتب خصلات الشعر المشعثة، ولا أن تسرّح شعرها على كتفيها. فبدون أن يزعج نفسه بالقرع على الباب، فتحه ودخل متقدماً من سريرها، وقال بخشونة وهو يرمي لها ساعتها على الفراش:

ـ لقد كذبت عليّ.

وانتقلت عيناها من الساعة التي كانت قد نسيتها حيث كانت تعمل، إلى وجهه. فقال:

ـ اعتقدت أنك ستحتاجينها.

وعلمت أن اللحظة غير مناسبة لشكره، فقد كان غاضباً جداً!

ـ لا بد أنك أرهقت نفسك كي تنجزي ما أنجزتيه من عمل. ولا عجب أن أصبحت مريضة!

وكأنما لم يتحمل النظر إليها، اتجه نحو النافذة لينظر إلى الخارج. وأدركت أن عليها قول شيء ما. ولكنها لاحظت أنه على وشك فقدان السيطرة على أعصابه. وكانت معتادة على استرضاء أبيها. وأوشكت أن تستخدم نفس الأسلوب معه، عندما أتتها فكرة... لماذا تفعل؟ منقسمة ما بين الشخص الذي كانته وبين ما تريد أن تكونه، أدركت أنها لن تستطيع التخلص من آثار الماضي لو أنها استسلمت عند أول صعوبة.. لماذا قد تفكر باسترضائه بعد كل الأشياء الفظيعة التي قالها لها في الماضي... ولماذا يجب أن تخاف من غضبه على كل الأحوال؟

ـ ومتى كذبت عليك؟

ـ لقد كذبت عليّ بصمتك.. كان بإمكانك القول لي، بالأمس وقبل أمس، أنك قررتِ تنظيف ذلك المكان ابتداءً من فوق. ولم تقولي كلمة واحدة عندما دعوتك بالكسولة المثالية. هذه الكلمة

أزعجتك وأنا أعلم هذا، ومع ذلك لم تقولي كلمة واحدة.

ـ لقد توقعت منك أن تتجول في المكان لترى بنفسك ما فعلت. على كل.. لقد أفادك هذا.. وما كان يجب أن تظن...

ـ ولكنني لست أنا من عانى من التعب، أيتها الحمقاء!

وهكذا أضاف لقباً جديداً مما يحتفظ به لها من ألقاب في جعبته.

ـ أجل لقد عانيت.. ولكنني بخير الآن. لذا لا حاجة للجدل في الموضوع... وأرجوك أن تغلق الباب وأنت خارج.

النار التي لمعت في عينيه لهذه الإهانة جعلتها تتمنى لو أنها لم تقلها، وبدا وكأنه على وشك أن يخنقها، وصاح:

ـ أيتها ال...

وصمت فجأة.. واستعدت لتصرخ... أنا آسفة.. آسفة.. آسفة! ثم شعرت بالسرور لأنها لم تفعل.. فبطريقة ما استطاع أن يسيطر على أعصابه، ربما لأنه لاحظ كيف شحب وجهها لعدوانيته. وقال:

ـ أنت على حق...

إذا كان لم يستخدم العقاب الجسدي عليها، فهذا لأنها سوف تضطر إلى تحمّل لسع لسانه.

ـ كنت مخطئاً في افتراض أنك كسولة. أنت مستعدة للعمل الشاق لتحصلي على ما تريدين.. أليس كذلك يا جميلتي؟

ـ أحصل على ما أريد؟

ـ ألست كذلك؟ ألا تسعين للحصول على انطباع جيد عنك؟ ألم تعملي على غسل وكوي الستائر وأنت على وشك الانهيار، بقصد واحد هو الظهور بمظهر اليائسة عندما وجدتك منهارة ليلة أمس؟

وتطلعت مشدوهة وشهقت قائلة:

ـ أتظن أنني...

ـ إنك أدركتي أن هناك أشياء تستطيعين الحصول عليها أكبر مما كنت ستحصلين عليه عن طريق شقيقك... على كل، سأترك لك مهمة إثبات أنني على خطأ.. كولين شادو.

وتركها تغلي بالغضب وخرج.

استيقظت كولين باكراً في اليوم التالي. وغضبت من نفسها لأن رأي جوليانو لم يهمها. ولم تكن تنوي كذلك أن تبرهن له عن شيء. وكل ما كان في ذهنها وهي تنزل إلى الطابق الأرضي، رغم شعورها بأنها ليست على ما يرام تماماً، أنها كلما عادت إلى العمل أسرع، كلما كسبت ثمن تذكرتها بسرعة أكثر، وتستطيع عندها أن تبتعد عنه وعن انتقاداته المريرة.

وخرج جوليانو من خلال أحد الأبواب عندما وصلت إلى أسفل السلم فقال لها فوراً ونظرة ساخرة تطل من عينيه:

ـ وما هي الملاحظات الطريفة التي تجول في رأسك هذا الصباح؟

ـ قبل أن تعتقد أنني أتيت لأبرهن لك شيئاً.. أقول لك إنني سأعمل اليوم.

ومرت نظرة السخط على وجهه بسرعة، لكنها لم تدم طويلاً. واصبحت نظرته فجأة مفكرة، وعاد الشيطان إلى عينيه:

ـ ظنوني حولك ثبت أنها كانت خاطئة. ألم تكوني محرجة يوم أمس؟ هل خدعتني عيناي لرؤيتك محمرّة الوجه عندما عانقتك قبل وضعك في الفراش؟

ـ ما.. ماذا تعني!

فقال بحدة:

ـ سأعطيك عشر ثواني للعودة إلى فوق. وإذا لم تتحركي سأحملك إلى غرفتك. وسأضعك بنفسي في فراشك.

ـ لن تفعل!

حتى وهي تقول هذا، كانت تعلم جيداً أنه قد يفعل.

وبدأ يعدّ!

ـ أربعة.. خمسة....

وصرخت بغضب:

ـ أيها القذر!.. أيها المكسيكي القذر!

ـ ثمانية.. تسعة...

وفي منتصف طريقها على السلم، سمعت ضحكته من خلفها، وتمنت لو أن في يدها شيء تقذفه به. كما سمعت، الرجال المكسيكيون يتوقعون من نسائهم الخضوع التام، ولكنها ليست امرأته، ولا تنوي أن تكون خاضعة له. لقد كانت خاضعة طوال حياتها.. ولم يقع اختيارها إلا على المكسيك من بين بلدان العالم لتحقق حريتها!

وشاهدته من نافذة غرفتها وهو يخرج. ليس بالسيارة كما هي عادته، بل سمعت وقع حوافر جواد فقفزت إلى النافذة، ورأته يبتعد على ظهر جواد أسود رائع، كم تمنت أن يرميه الجواد عن ظهره، ولكن لا أمل بأن يحدث هذا، كما لاحظت، فالجواد وخياله كانا يسيران وكأنهما جسم واحد.

يبدو أنه ذهب إلى المزرعة، وسيبقى هناك طوال النهار، وكانت مصممة أن لا تخضع لإرادته بالعودة إلى الفراش، فنزلت إلى المطبخ لتعرض المساعدة في اللحظة التي اختفت فيها أصوات وقع حوافر

الجواد.

وأخذت تشير لتينا، وكأنها تكنس وتغسل وتنفض الغبار، متمنية أن تفهم ما تريد. وظنت أن تينا فهمت عليها، عندما أشارت إليها لتتبعها.

ولكن أملها خاب بعد أن لحقت بها عبر الردهة إلى الباحة المرصوفة خارج المنزل، حيث أشارت إلى كولين بالاستلقاء تحت الشمس على كرسي نوم وترتاح، وكانت كلمة «السنيوره» التي مرت من خلال تدفق الكلمات بالإسبانية منها، كافية لتوضيح أن السنيور أمر بأن لا تمد يدها إلى شيء هذا النهار.

ولم ترد أن تزعج تينا التي كانت كالملاك معها يوم أمس، فتمددت على الكرسي. وابتسمت لها تينا ابتسامة مفاجئة، وانسحبت لتكمل عملها.

وتمددت كولين تحت الشمس أكثر من ساعة، دون أن تفكر بشيء. المناظر الخلابة من حولها، للمزارع على التلال العالية، الخضراء التي تحيط بها السماء الزرقاء الصافية، لم تترك مجالاً لأية أفكار مزعجة في نفسها، بالقرب منها كان هناك بركة سباحة، مياهها مغرية، مع أنها لم تكن سباحة ماهرة، ووراء البركة تمتد مروج خضراء، وزهور، ملونة بكل الألوان، وورود ومارغريت، بينما الهدوء يلف المكان كله من حولها.

وانتقلت عيناها عن مساكب الزهور الجميلة، ليشد انتباهها رجل يقوم بالحفر، كان في حوالي الخمسين من عمره، وشاهدها بدوره، وكان قريباً منها بحيث أنه رآها تبتسم. ولكن شيئاً ما في الطريقة التي كان ينظر بها إليها جعل ابتسامتها تختفي. شيء ما جعلها غير مرتاحة، شيء يجب أن تعرف ما هو مما جعلها تقرر أن لا تجرب بركة

السباحة اليوم.

وكانت على وشك أن تقرر أنها لم تعد تتمتع بالاستلقاء هنا، عندما خرجت ايما تحمل صينية قهوة.

ـ لم أعلم بأنك وصلتِ.

وقابلت ايما هذه الكلمات التي لم تفهمها بابتسامة، ثم لاحظت أن الفتاة شاهدت البستاني، وعلمت أنه مسالم عندما نادته ايما:

ـ ماركو.. القهوة!

وارتشفت كولين قهوتها، ولم يعد ماركو موجوداً، فعاودها الشعور بالارتياح، حتى أنها بدأت تشعر بالسعادة عندما ركضت الصغيرة بيلا إليها، وقد تغلبت على خجلها من كولين، وهي تصيح بسرور، دون اهتمام إذا كانت كولين تفهمها أو هي تفهم عليها مكررة كلمة «فياستا» أي الاحتفال مرات ومرات، وعلمت بعد أن خرجت ايما وراء الصغيرة، أنهم سيقيمون لها حفلة عيد ميلاد قريباً، ورفعت ايما يدها إشارة إلى أن الصغيرة سيصبح عمرها أربع سنوات.

عندما بلغت الساعة الثامنة، كان شعور بالجوع يسيطر عليها، بالرغم من أنها لم تفعل شيئاً هذا اليوم، فتناولت طعاماً خفيفاً، وكان امادو وماركو يأكلان في المطبخ عندما أدخلت الأطباق الفارغة، وسط احتجاجات ايما وتينا، وعلمت عندها أن ماركو هو من يقوم بالأعمال المختلفة في المكان.

وقررت أن الاستلقاء طويلاً تحت الشمس أمر غير حكيم، فخرجت لتتمشى بعد الظهر، وقامت بجولة على العديد من المباني والاسطبلات حيث يعمل العديد من الرجال، ذوي الشعر الأسود والعينين البنيتين على عكس رب عملهم، وكلهم يرتدون قبعات

القش، ولم تكن القبعات من طراز (سومبريرو) المكسيكي المشهور كما تصورت كولين.

عند المساء، ارتدت فستانها الطويل الذي ارتدته يوم تعشت مع جوليانو آخر مرة، كانت متأكدة أن تينا قد أخبرته بكل ما فعلته خلال اليوم. ولم ترغب في أن يأتي إليها بنفسه ليأمرها بالنزول، فدخلت غرفة الجلوس عند الساعة الثامنة إلا ربع، ووجدته هناك يصب لنفسه كأساً من الشراب...

وبدأت الكلام معه لتظهر له أنها على استعداد لأن تكون مؤدبة:

ـ يبدو أنك غير معتاد على الشراب الوطني.. كما أرى؟

ـ في بعض الأحيان.. يبدو أنك تحسنت.. ماذا تحبين أن تشربي؟

ـ أشرب مثلك.

وأشار إليها بالجلوس، ثم قدم لها كأس الشراب، وجلس في المقعد المقابل لها. كانت مصممة على البقاء هادئة وعادية، وتريده أن يبقى هادئاً إلى أن تجد جواباً على سؤال ظل يجول في ذهنها طوال اليوم؛ وقالت له:

ـ لون شعرك أفتح من باقي المكسيكيين الذين قابلتهم.

وشعرت بالندم فسارعت للقول:

ـ آسفة لم أقصد أن أكون غير مهذبة معك.

ـ هل يحيرك لون شعري؟

ـ أجل.. أنا لم أشاهد مكسيكياً لون عينيه أزرق أيضاً.

ـ هناك الكثير هكذا في الشمال.. ومن المعروف أننا أخذنا هذه الألوان من أسلاف فرنسيين وليس من أسلاف اسبانيين.

ثم بدأ يروي لها كيف تلقى الامبراطور مكسيمليان الدعم من

الفرنسيين، وكيف أن البعض منهم بقي في البلاد وتزوج من فتيات محليات. عذوبة حديثه جعلت تفكيرها يبتعد عن السؤال الذي كانت ترغب حقاً في طرحه عليه، ووجدت نفسها تسأله عما إذا كان قد تعلم الفرنسية عن طريق أسلافه. فأجاب بالفرنسية «وي»، وابتسمت مرغمة، لأنه تلفظ بهذه الكلمة بطريقة مضحكة. خلال هذا عيناه بقيتا مثبتتان عليها، ولم تفهم لماذا، ثم قال:

- تصبحين أجمل عندما تبتسمين يا كولين، يجب أن تبتسمي دائماً.

وأزعجها هذا التعليق الذي يجب أن يكون إطراء، فهو قد جعله يبدو وكأنه تقرير أمر واقع، فربما لم يكن يقصد به الإطراء. وقالت له:

- وأنت تتكلم الانكليزية بطلاقة أيضاً.

- لقد تلقيت تعليمي لعدة سنوات في أمريكا... أرى أنك انهيت شرابك، فهل ترغبين في المزيد أم نذهب لتناول العشاء؟

- أفضل العشاء.

وقال لها بعد أن رآها تبتسم:

- أعتقد أن فكرة ما أضحكتك؟

- كنت.. أفكر فقط بشيء ما.

وانتظرت كولين إلى نهاية العشاء لتسأل السؤال الذي كان يلح على الخروج من لسانها:

- جوليانو... كنت أتساءل...

- أنا مصغ إليك.

- حسناً.. لا يبدو أنني أعمل بشكل جيد لكسب ثمن تذكرة سفري.

- غريب.. ولكن من رأيي أنك قمت بعمل أكثر من جيد فيما طلبته منك.

- ولكنني لا أظن هذا. لذا كنت أتساءل.. إذا...

ونظرت إليه، وانزعجت لأن تعبيراته لم تتغير، وانزعجت أكثر لأنه قنع بالجلوس وتركها تجمع شتات تفكيرها لما ستقوله:

- هل تستطيع أن تقرضني ثمن تلك التذكرة؟

وهكذا خرج السؤال منها، وانتظرت رده مقطوعة الأنفاس. ورفعت رأسها عالياً بانتظار رفضه. وسألها بعد توقف بدا لها طويلاً:

- أقرضك؟

ووجدت بعض التشجيع لأنه لم يجابهها برفض قاطع. وبدا أن كبرياؤها قد فارقها وهي تقول له:

- سأعيد دفعها لك، كل قرش منها. وأعلم أنك لن تتضايق من دفعها.

- هكذا إذاً.. لقد كنت تتجولين بفضول اليوم لتعرفي مدى ثرائي.

- لا.. ليس الأمر هكذا. لقد خرجت لأتمشى، صحيح، ولكن ليس لأتجسس، كما تسمي الأمر.

اللعنة عليه، لقد فهم بشكل خاطىء، وابتعد كثيراً عن محاولة فهم وجهة نظرها. وكل ما نجحت به هو أنها أكدت له بأنها تسعى وراء المال تماماً كأخيها.

ولم يكن عندها أدنى فكرة عن كيفية إقناعه كم هي مخلصة، ولكن مهما يكن، عليها أن تحاول. وعليها أن تجلس وتتحمل كل ما سيتهمها به، فهي لن تتمكن من الصراخ في وجهه كما ترغب. فعليها أن تخرج من هنا، وعن طريقه هو فقط يمكن تحقيق هذا.

ولكن قبل أن تتمكن من ترتيب الكلام الذي ستقوله، كان يسخر منها قائلاً:

- يبدو عليك أنك متشوقة للذهاب. . . هل هذا يعني أنك لا تحبين هذا المكان؟

- منزلك في منطقة جميلة جداً. . . ولو. . أن الظروف كانت مختلفة، فأظن بأنني .أكون مسرورة جداً لهذه الفرصة. . لقضاء بعض الوقت هنا. . ولكن. . .

- ولكنك أدركت أنني لست فريسة سهلة لعينيك؟

وازداد غضبها، فصاحت وقد آلمها اتهامه لها ثانية بأنها صائدة فرص.

- اللعنة عليك!

وكان رده مع ابتسامة باردة لأنه نجح في تحطيم برودها.

- تقولين بأنك ستردين المبلغ لي. . فهل يجب أن أقبل بطلبك؟

وهكذا بهدوء، أطفأ نار غضبها بالعودة إلى الموضوع المهم، وبدلاً من أن ترميه بكوب الماء، تنفست الصعداء، وبدا لها أنه على استعداد لبحث الأمر.

- أجل بالطبع. سيكون هذا مجرد قرض.

- وهل لي أن أسأل كيف تنوين أن تدفعيه؟ مما فهمته منك فوالدك هو معدم مثلك تماماً، وإلا لكنت أبرقت له لتطلبي المبلغ عندما كنت في الفندق في (كواريتارو).

- والدي لا يفتقر إلى المال!

- ولكنه لا يميل لإرسال أي مبلغ من مالك له؟

- لقد دفع ثمن تذكرة سفري إلى هنا.

- بالنسبة لرجل بخيل هكذا، يبدو أنه كان مستعداً للدفع لمجرد

الخلاص منك. هل كان سعيداً للخلاص منك؟

وآلمها السؤال، مما أجبرها أن تدافع عن والدها، فقالت بهدوء:

- لم يكن في منزله الجديد مع زوجته مكان لي.

- ألم يكن والدك يحبك؟

وجاء دورها للسخرية، فلم ترغب في أن يلاحظ أن الرد على سؤاله يؤلمها أيضاً:

- لم يقل لي هذا أبداً.

- عندما يكون الحب موجوداً فلا حاجة للكلام فيه، فمعرفته غريزية.

وعادت إليها كراهيته ثانية وهي تجيبه:

- إذاً. . قد أفهم من هذا أن والدي لم يكن يحبني.

وشعرت بالغضب من هذا الحديث، واستمر جوليانو بالنظر إليها دون أن يرد، فتابعت:

- وأفضّل أن لا نتكلم عن والدي أو عن نقص عاطفته لي، لو سمحت.

- حسن جداً. . . ولنعد إلى ما تقترحينه لرد القرض الذي قد أفكر بأن أعطيه لك.

- سأحصل على وظيفة. . عندما أعود إلى بريطانيا.

- وماذا ستعملين؟ إذا كنت قد قلت لي الحقيقة، فإنك لم تعملي من قبل.

- أعترف بأنني لم أعمل من قبل لقاء أجر، ولكنني كنت مدبرة منزل والدي وكنت أنظفه أيضاً.

وعرف جوليانو أنها لا تخاف من العمل أبداً.

- لا أشك في هذا.

وبدا صادقاً. وعلمت أنه تذكر ما قامت به في منزل المدير.

ـ لم أكن أريد أن أطلب منك، ولكن بما أنني لم أجد رايان . . فأنا . . .

ها قد أفسدت الأمر. وأدركت هذا عندما ذكرت اسم رايان فكل ما سيتذكره الآن هو ايذاء شقيقها لفرد من أفراد أسرته، واستنتجت هذا من تصلب فكه الفجائي. يبدو أن كراهيته لرايان وكل ما فعله أكبر من أن ينساها، ودفع بكرسيه إلى الخلف ووقف:

ـ أرى أن شهيتك قد تحسنت، ولكن بما أن الوجبة قد انتهت فأرجو أن تعذريني . . فلدي أوراق يجب أن أدرسها.

ـ ولكن . . ماذا عن تكاليف سفري؟

ووقفت بسرعة، وتقدمت نحو الباب لتصل إليه في نفس الوقت الذي وصله. فهي لم تجلس هنا طوال السهرة حتى يخرج في النهاية ويصفق الباب في وجه آمالها.

ـ تكاليف سفرك؟ لقد اقترحت بنفسك أن تعملي لاكتسابها. وهكذا ستفعلين، ولكن ليس في بلادك.

ـ وهل سأبقى . . هنا؟

ـ لبعض الوقت كما أظن . . . هذا إلا إذا كنت تنوين أن تتبعي مثال ما فعله شقيقك.

إذاً . . فتفكيره لا يزال مركزاً على رايان، وأجابته:

ـ أنا . . لم أفهم عليك.

ـ لم تفهمي؟ . . شقيقك ظن أنه وجد لنفسه امرأة ثرية، ألم يفعل هذا؟

ـ وهل تعتقد . . . هل تظن أنني قد أمثل عليك كي أحصل على تكاليف سفري دون أن أعمل بالمقابل؟

ـ لا أذكر أنك عارضتني يوم أمس عندما عانقتك.

ولم تدري ما الذي يزعجها أكثر، أهي عجرفته التي لا تطاق، أم الخجل الذي غمرها لأنه كان يقول الحقيقة، ولكن يدها اليمنى التي تلهفت أكثر من مرة للوصول إليه. لم يعد باستطاعتها إسكاتها، وقبل أن تفكر، اختارت يدها اللحظة المناسبة لتنطلق في الهواء.

وصفعته على وجهه تماماً، وهي بالكاد تعرف ماذا تفعل، فيدها كانت تتصرف باندفاع ذاتي عنيف. وقالت بعد الصمت الذي تلا:

ـ بما أننا لا زلنا في مجال التذكر، أتذكر انني نسيت أن أعطيك هذا بالأمس.

الابتسامة التي ظهرت على وجهه لم تعجبها أبداً. وقال بنعومة:

ـ أنا أشعر بالفعل يا كولين شادو، أن هذه العقوبة أكبر من الجريمة. لذا اسمحي لي يا عزيزتي كولين أن أصحح هذا التوازن.

ولم يكن لديها أية فكرة عما سيفعل، مع أنه قد خطر في بالها أكثر من مرة بأنه يرغب في ضربها، ولكنها لم تكن تظن بأنه سيرد على التحية التي قدمتها له لتوها.

مع ذلك، فقد أسرعت بالتراجع، واكتشفت أنه أسرع منها في الحركة، ولكن ليس ليضربها . . وفي لحظات لم تدري بنفسها إلا وهي ما بين ذراعيه. وجسده الذي لامسها يوم أمس قد عاد ليلامسها ثانية.

ولكن هذه المرة لا تقارن بالمرة السابقة، وقاومت كي تتخلص، فهي لا تريد أن تبقى بين ذراعيه. ولكن يا للسماء . ما الذي يحدث لها؟ إنها تشعر بالسلامة والأمان بين ذراعيه، ومع ذلك فلا يجب أن تشعر هكذا. وشهقت:

- لا تفعل هذا!

واستطاعت أن تبعد نفسها قليلاً عنه، ولكنه عاد ليحكم ذراعيه من حولها، وحاولت التخلص بقوة، وأن تجذب جسدها بعيداً عنه، ولكنه استمر في الضغط عليها بشدة، ثم ذهلت لشعورها بأن الخوف قد بدأ يختفي من داخلها ليخلي الطريق أمام مشاعر جديدة.

ولم تعد تقاوم، بل أحسّت بالدوار، وعندما تركها، وجدت أنها تحدق بغباء في عينيه اللتان بدتا وكأنهما تكشفان كل ما يدور في أعماقها.

- ألم تكوني تتوقعين وجود هذه المشاعر في داخلك؟

وأحسّت بغضب شديد لأنه كان يسخر من سذاجتها. وأخذت تفكر بماذا سترمي في وجهه، ثم قفزت إلى ذهنها فكرة قد تكون الحل لكل مشاكلها.

- بإمكانك الاحتفاظ بمالك... فأنا لست بحاجة إليك! أول شيء سافعله في الغد أن أذهب إلى القنصلية البريطانية. فهم موجودون هنا لحل مشاكل مثل مشكلتي، ولمساعدة البريطانيين المقطوعين هنا.

وتمنت أن تكون محقة... ولكن غضبها لم يؤثر به أبداً.. ولاحظت على الفور أن ما يجري وراء عينيه الذكيتين لن يعجبها أبداً.

- بعيداً عن أن ليس هناك قنصلية بريطانية في «دورانغو» فعائلتك مدينة لعائلتي سنبوريتا.

وأخذ يحدّق بها، والجليد في عينيه على عكس المظهر اللامبالي الذي كان يتقنع به. يجب عليها إذن أن تدفع الدين قبل

أن يوافق على ذهابها. لكنها ستحاول إيجاد قنصلية بريطانية في مكانٍ ما ولو كلفها هذا المال القليل الذي تملكه، ولكنه قال لها:

- لو حاولتِ الخطو خطوة واحدة خارج أملاكي، أيتها الآنسة الشامخة الأنف، فسوف أضع شقيقك في السجن قبل أن تحصلي على مقعد في أية طائرة.

- السجن؟ لا تستطيع، فأنت لا تعرف مكانه.

- لدي اتصالاتي، وأستطيع معرفة أين ذهب. ولن يكون صعباً على البوليس أن يلقي القبض على رجل انكليزي.

وتمنت كولين أن يبقى شقيقها مختفياً، بالرغم من رغبتها في أن تجده. وأخفت خوفها ثم قالت متحدية:

- لا تملك شيئاً ضده... ولم يرتكب أي خطأ!

- لتتخلى عن الجدال الأخلاقي، بما أنك ملوثة مثله.. ويكفي أن أقول، إنني أستطيع التفكير بشيء سيبقيه في قبضة البوليس إلى أن يُقدم للمحاكمة.

- ولكن.. بإمكان محامٍ بارع أن يظهر بأنه اتهم زوراً.

- ربما.. ولكن ليس قبلَ أن يختبر الحياة في سجن مكسيكي.

وبينما كانت تحاول فهم ما يقصده، تركها وتوجه نحو الباب، وفتحه منتظراً أن تخرج منه وتابع:

- قوانيننا مختلفة عن قوانين بلدكم، فهنا نعتبر المسجون مذنباً حتى تثبت براءته.

وتحركت كولين وكأنها إنسان آلي، مذهولة، لا تستطيع التصديق بأن هذا الرجل الذي عانقها بكل لطف يمكن أن ينقلب إلى رجل بارد يجري الثلج في عروقه. ونظر إليها وقد لاحظ كم أثرت كلماته بها.

ـ وهل ذكرت لك أن جداول محاكمنا مشغولة جداً؟ وأن على شقيقك مواجهة وقت طويل في السجن قبل...

وتركته إلى غرفتها قبل أن يكمل كلامه. لقد هزمها، وهو يعرف هذا. وليس أمامها أية فرصة سوى أن تطيعه في كل شيء إذا كانت تريد أن لا يختبر رايان شكل السجن في المكسيك من الداخل.

•••

٦ ـ بدون خبرة

خلال ثلاثة أيام ظل قلب كولين مليئاً بالمرارة على جوليانو اريكو. وعند وقت تناول الطعام لم تكن تتكلم معه إذا استطاعت تجنبه، وتشعر بفرح قلبي عندما يظهر عليه الانزعاج منها. وكم كانت تفضّل أن تتناول طعامها في المطبخ مع الآخرين.

ولم تكن الأمور بينهما تتحسن حتى وهو يصرّ على أن تتّبع تعليمات الطبيب حرفياً، وترتاح. وبعد هذه الأيام الثلاثة أصبحت كولين متلهفة لعمل أي شيء.

في اليوم الرابع جلست في الفناء الخارجي ترتشف قهوتها الصباحية، يبدو أن هناك بعض الفوائد من تكاسلها الإجباري. وإحدى هذه الفوائد هو تعرّفها بالموجودين في المنزل أكثر.

وتوقف تفكير كولين عندما خرجت بيللا الصغيرة، كعادتها كل صباح، لرؤيتها. وتذكرت أن الطفلة الحبيبة قد أتمت الرابعة في هذا اليوم. ومدت كولين يدها إلى حقيبتها وأعطتها قطعة شيكولاته بالحليب من النوع الذي يفضله شقيقها رايان، والذي جلبته معها ظناً منها أنه غير متوفر في المكسيك. وكان هذا كل ما تستطيع أن تعطيها إياه. وأخذتها بيللا بسعادة وأمسكت بها بيديها وهي تركض

إلى الداخل وتصرخ «مامي».

وكان ماركو في المطبخ عندما دخلت كولين لتعيد صينية القهوة، واحتجت تينا كالعادة، وتقدمت ايما منها لتشكرها على الشيكولاته التي أعطتها لبيلا وحاولت كولين أن تفهم ما كانت تقوله ايما بالإسبانية عن الاحتفال. فقال ماركو وابتسامة على وجهه تبرز أسنانه الصفراء:

ـ ايما تسألك عن الحفلة.

لقد برهن ثانية على أنه مفيد.

وإذا كانت قد فهمت بشكل صحيح، فهي مدعوة لحفلة عيد ميلاد بيلا بعد ظهر هذا اليوم. وبمساعدة ماركو، وإشارات من ايما، تأكدت أنها فهمت بشكل صحيح. وبعد قبولها الدعوة بابتهاج، تركت المطبخ، على الأقل سيكون هناك نوع من التغير في حضورها الاحتفال.

يبدو أن ساعات عمل ايما كانت مرنة، وبما أنها لم تكن تعمل بعد الظهر، فقد تم الاتفاق على أن يرافق ماركو كولين إلى الكوخ الذي تسكنه ايما مع زوجها. وعند الثالثة صعدت إلى «فان» قديم، بدا بدهانه الباهت، ومحركه المختنق، صالحاً لتسلق الهضاب أكثر من السير في البلد.

وخففت العربة من سرعتها بينما بدت مجموعة الأكواخ على مرمى النظر، ومدّ ماركو يده ليغير سرعة السيارة، فلامست يده الضخمة ركبة كولين، ويبدو أن الأمر كان عفوياً، وكان تفكيرها مشغولاً بأشياء أخرى، فالتفتت إليه مبتسمة، ونسيت الأمر، وعاد تفكيرها ثانية إلى الحفلة.

ـ ساعود لآخذك سيدتي.

قال ماركو هذا بخليط من الاسبانية والانكليزية، وكانت كولين تفكر بما قاله حتى أنها لم تلاحظ الطريقة التي كان يلعق بها شفتيه.

ـ موتشاغراتسيس ماركو.

وتوجهت نحو الكوخ الذي أشار إليه حيث تعيش ايما، وزوجها وفوجئت عندما دخلت الكوخ الصغير الساحر. فقد كان هناك جيش من النساء.. لا بد أن عيد ميلاد طفل في المكسيك حدث كبير، وأدركت كولين هذا قبل أن يقع نظرها على قالب الحلوى ذو الثلاث طبقات. لم تكن قد حصلت على عيد ميلاد لها طوال حياتها. ولكنها حضرت حفلة قبل وفاة والدتها، وقالب الكاتو في تلك الحفلة، كما تتذكر، لم يكن مشابهاً بأي حال لهذا القالب الضخم الجميل.

وابتسمت ايما مرحبة بها بحرارة، وشعرت بأنها ضيفة مميزة. ثم خرجت من المطبخ إلى الحديقة حيث الطاولات والكراسي، والبعض منها مستعار من الجيران، كما لاحظت كولين، والأطفال بثيابهم الملونة يلعبون ويمرحون.

وكانت الحفلة قد بدأت عندما حضر الرجال من عملهم باكراً. وقدمت ايما زوجها لكولين، ثم تجمع الأولاد من حوله وأعطوه قناعاً من كرتون يمثل مهرج السيرك صائحين «بيناتا.. بيناتا!». فربط القناع على وجهه وحمل الدمية على عصا، وأخذ يدور بها، والجميع يرقصون ويغنون ويدورون حوله، وهم يضربون الدمية بالعصي.

ذروة هذا الحفل كان بعد أن قُطعت أول ساق للمهرج الورقي الذي كان يدور به زوج ايما، ثم إحدى ذراعيه، وقام أحد الأولاد بضرب الدمية بقوة، وتساقط كل أنواع السكاكر والحلويات من رأس

الدمية. ونتج عن هذا تجمع مضحك للأولاد ليحصلوا على ما وقع على الأرض. وتكوّم الأولاد على الأرض ليجمعوا ما يقدرون عليه حتى أن ابتسامة كولين اتسعت ثم انفجرت بالضحك.

وأمسك أحدهم بذراعها فأدركت، بعد أن خفت ضحكتها ولا زالت الابتسامة عريضة على وجهها، أن شخص ما قد وصل وأنها تسد عليه الطريق. فالتفتت، الواصل المتأخر كان جوليانو انريكو، ولاحظت أن نظراته مثبتة على فمها الضاحك، الذي بالكاد كانت تفتحه للحديث في رفقته خلال الأيام القليلة الماضية. واختفت الابتسامة.

ـ هل تتمتعين بالاحتفال؟

لقد كنت أتمتع... فلماذا جاء إلى هنا؟ وبرز تحفظها البارد بكامل قوته. فقالت ببرود:

ـ أجل.. كثيراً.

ولكنها لم تعد كذلك. فهي الآن راغبة بترك الحفلة، فوجوده قد أفسد سعادتها، وقالت بخشونة ولكن بأدب:

ـ اعذرني.

وحاولت الابتعاد عنه. سوف تودع الجميع، ثم تبدأ بالعودة إلى المنزل، وقد تلتقي بماركو في الطريق.

ولكن نيتها في الابتعاد عن جوليانو لم تصل إلى نتيجة. فعندما وصلت إلى حيث والدا الطفلة الفخورين، كان جوليانو إلى جانبها. وتمتم لها ببعض كلمات، ثم وجدت نفسها تسير معه ويده تمسك ذراعها بحزم، بينما كان يتبادل التحيات مع الحاضرين.

ماذا يظن أنه يفعل.. يمسك بذراعها هكذا، وأمام الجميع يظهر بأنه مرافقها؟ وغضبت... ولم تتردد عندما أصبحا خارج المنزل

في أن تجذب ذراعها من يده، وهي تستعد لتوديعه ببرود. وقالت:

ـ على الأرجح سأراك وقت العشاء.

وكانت هذه إشارة صرف له، ولكنها أدركت من نظرته الغاضبة أنه لم يعجبه ما قالته.

ـ سأصطحبك بنفسي إلى المنزل.

ـ لا.. سيأتي ماركو لمرافقتي.. وسأذهب الآن ما...

ـ ماركو لن يأتي ليأخذك. وأنت لن تمشي إلى أي مكان في هذا الحر.

ـ لقد اتفقت مع ماركو أن...

ـ وأنا قلت له أن يتابع عمله.

وفكرت كولين بغضب.. يا إلهي كم تكرهه! واضطرت، قبل أن يقوم بجرها بالقوة، أن تتجه إلى سيارته. ولكنها لم تنظر إليه وهي جالسة بقربه. ولم يقم بتشغيل المحرك على الفور، مما دفعها للنظر إلى وجهه المتجهم.

ـ في المستقبل لا تخرجي إلى أي مكان مع ماركو.. هل هذا مفهوم؟

ولم تكن تنوي أبداً الذهاب مع ماركو إلى أي مكان. ولكن هذا لم يمنعها من إجابته على الفور:

ـ ومن تظن نفسك.

ـ أنا الرجل الذي سيدفع أجرة سفرك.

فردت عليه بحدة:

ـ أنت تحب أن تكرر هذا دائماً!

وضرب بيده بقوة على المقود. لقد أثارته أكثر مما يحتمل. وقال راعداً:

- ابتعدي عنه!

وأدار السيارة بعنف.

واستغرقت رحلة العودة نصف الوقت الذي استغرقته مع ماركو، وبصمت ثقيل يجثم كالقلعة ما بينهما.

توقعها أن تشاهد جوليانو عند العشاء كان خاطئاً. وشاهدت النور من تحت باب مكتبه، لا بد أنه أمضى عدة ساعات هناك. وربما سيتناول عشاءه وهو يعمل.. وهذا أفضل لها فبقاؤه داخل مكتبه، سيوفر عليها ضرورة تحمله أكثر مما تستطيع.

واكتشفت مستغربة أن لا شهية لها على الطعام، ولا يمكن أن يكون السبب ما تناولته في الحفلة، لأنها لم تأكل الكثير هناك.

في اليوم التالي كانت مشاعر الثورة تغلي في داخلها. فقد سئمت وتعبت من فرض جوليانو لقوانينه الخاصة عليها. وها هو يوم آخر من الكسل وعدم الحركة يواجهها.

عند الساعة الحادية عشر من هذا الصباح، أحسّت بالقلق وهي تقاوم أوامر جوليانو بأن ترتاح، وفكرت بأن تنظيف منزل مدير المزرعة أفضل لها من أن لا تعمل شيئاً، وكانت في الباحة الخارجية عندما برز ماركو من جانب المنزل. وفكرت أن تعتذر له لأنه تلقى تأنيباً من جوليانو بالأمس. وسارت نحو المرجة لتفعل هذا.

وبعد الاعتذار، رأت من ابتسامته التي تبرز أسنانه الصفراء أنه لا يحمل أية ضغينة، وقال لها بالانكليزية المكسرة:

- نزهة في السيارة؟

واعتقدت أنه يعني بأنه ذاهب إلى البلدة لعمل ما، وأنه يعرض عليها أن يأخذها معه. وكان يحمل قطعة خشب في يده، فربما هو بحاجة لمسامير أو أي شيء لهذه الخشبة.

وبأسف هزت رأسها بالنفي. فهي لن تستطيع بسهولة أن تنسى ما يستطيع جوليانو فعله لشقيقها لو أنها خطت خطوة خارج حدود أملاكه. ولكن التمرد في داخلها، وعرض ماركو أخذها معه إلى البلدة، أعطاها فكرة أخرى. فقالت:

- أنت.. تأخذني إلى الكاسا الخاص بالمشرف؟

فقال لها ماركو على الفور:

- سي.. سي.

وفكرت كولين، كم هو لطيف لأنه لم يحمل ضغينة ضدها لتسببها بأن يلذعه جوليانو يوم أمس بلسانه. فقالت:

- مومنتو.. دقيقة واحدة.

وبشعور مبهج لأنها سترد الكيل لجوليانو انريكو العظيم التبجيل، أخذت تفتش في المكتبة حيث كانت قد شاهدت رزمة مفاتيح، ولم تأخذ وقتاً طويلاً لتتعرف إلى مفتاح منزل المشرف. فأخذته وأسرعت إلى حيث يوقف مارك عادة سيارته.

وكان من عادتها أن تخرج من المنزل من باب المطبخ نحو الفناء الخارجي، ونظرت إليها تينا باستغراب فقالت لها كولين:

- منزل المشرف... ماركو سيأخذني إلى هناك.

وعندما استمرت تينا تنظر إليها باستغراب أبرزت المفاتيح، وكان رد فعل تينا عندها مهتاجاً وصاخباً. فقالت صائحة:

- لا.. لا..

فضحكت كولين وأجابت:

- سي! سي.. بلى.

واتجهت نحو الباب.. فلتقل لجوليانو، فلماذا ستهتم به! سوف تعلق الستائر اليوم.. وجلست إلى جانب ماركو في السيارة،

وانطلق بها، متجاهلاً خروج تينا وهي تصيح به بملء فمها بالاسبانية.

مرة أخرى خلال قيادته للسيارة، لمست يده ركبة كولين. ولكن الابتسامة على وجهها عندما استدارت لتنظر إليه تلاشت فجأة، حتى ولو أنها ظنت بأنها تخيلت تلك النظرة على وجهه.

وفكرت.. لا بد أنني مخطئة، وبدأ السرور يتلاشى، وتحركت نحو الباب أكثر، حتى وهي تظن بأنها تخيلت تلك النظرة في عينيه، ودفعها الشعور بالقلق للقفز فوراً من «الفان» عندما أوقفها مارك قرب المنزل. وقالت:

ـ غراتسياس ماركو.

واكتشفت أنها اختارت المفتاح الصحيح، إذ فتح باب منزل المشرف ودخلت، الطابق الأرضي كان كما تركته، وشعرت بطاقتها الكاملة، فتوقفت في المطبخ، حيث كانت تعليقات الستائر، وحملتها ثم صعدت إلى الطابق العلوي وهي تتشوق لتعليقها.

وكانت تقوم بتثبيت العلاّقات على الستائر عندما استدارت لسماع صوت.

ـ لنمرح.. ايه سنيوريتا؟

وقبل أن يستوعب عقلها ما قاله، وماذا يفعل هناك، بدأت يداه الغليظتان تفكان أزرار قميصه. وتصاعد الذعر فيها، وشعرت بالغثيان، وجفّ فمها.. يا إلهي.. يمكن أن تصرخ حتى ينفجر رأسها هنا ولن يسمعها أحد، وقالت، محاولةً أن تجعل صوتها حازماً:

ـ لا.. ماركو. لقد فهمت كل شيء بشكل خاطىء.

وبدا أنه لم يسمعها أبداً، وضحك، وعيناه تتجولان فوق جسدها

وكأنهما تعريانها، واقترب منها.

وتحركت بسرعة بينما كان يفك حزامه، وقفزت من فوق السرير إلى الجانب الآخر، والتفتت إلى النافذة، وتذكرت أن هذه النافذة بالذات لم تنفتح معها المرة الماضية. فقالت:

ـ لا.. لا مرح.

هو بالتأكيد أقوى منها، ولكن يجب أن تبقى بعيدة عنه، فلو تقدم منها وأمسكها فلن تستطيع المقاومة ضد جسده الضخم. وقال:

ـ سي... فياستا.

إذاً فهو يريد أن يحتفل. ولم تتحرك عيناها عنه، والتقطت قضيب الستارة. قد لا يكون سلاحاً فعالاً ضده، ولكن هذا كل ما استطاعت أن تجده.

وشاهدته ينظر إلى القضيب في يدها، وبدأ يضحك، ثم فجأة، بعد أن ماتت ضحكته، ظنت أنها سمعت في الصمت الذي تلا صوت محرك سيارة. وانبعث الأمل فيها، ولكنها كانت خائفة من أن تذهب إلى النافذة لتنظر إلى الخارج، فيتمكن ماركو عندها من الإمساك بها. فهو لم يسمع شيئاً، كما لاحظت، فقد أخذ يقترب منها بالتدريج وشاهدت النظرة النهمة في عينيه.

ثم توقف فجأة، فقد سمع بدوره هدير صيحة:

ـ كولين!

وتبع الصيحة وقع أقدام تصعد السلم الحجري.

وخفق قلبها بشكل أعنف، وهذه المرة من الارتياح، وانهمرت الدموع من عينيها بعد أن دخل جوليانو الغرفة، ونظرة غضب شيطاني على وجهه وقد شاهدها تدافع عن نفسها بقضيب ستارة رفيع. ثم نظر ثانية إلى ماركو الذي انفجر بالثرثرة.

ما كان يقوله ماركو، لم تفهم كولين منه شيئاً. ربما يقول بأنها هي من أتت به إلى هنا. ولكن جوليانو لم يهتم بتفسيراته، إذ أخذ يزأر وكأنه الثور البري، وجرّ ماركو إلى خارج الغرفة بعيداً عن نظرها. ومن أصوات الضرب واللكم والصراخ تمكنت أن تحزر ما حدث.

ولم يكن هناك شك في ذهنها، على الرغم من ضخامة جسد ماركو، أنه سيحصل على أسوأ عقاب من جوليانو. وشعرت بالامتنان والدفء لمخدومها الذي أسرع لنجدتها، وأتى من حيث لا تدري لإنقاذها.

ولم تكن كولين معتادة على الاستسلام للبكاء، ولكن خلاصها من الرعب الذي تملكها، عبّر عن نفسه بنحيب عنيف أخذ يهز جسدها هزاً. ولم تستطع إيقافه.

وكانت الدموع لا تزال تنهمر على وجهها عندما عاد جوليانو بعد دقائق. وسمعت صوت محرك سيارة ماركو، وعلمت أن جوليانو لم يقتله. ولم تستطع السيطرة على نفسها لأن دموعها ظلت تنهمر. وتجاهلت نظرة الغضب في عينيه وأخذت تصيح بانفعال:

ـ جوليانو.. اوه جوليانو! إنها غلطتي.. أنا.. أنا لم أفهم.. كان عليّ أن أعرف...

ومن خلال دموعها لاحظت أن الغضب زال عن وجهه، وبخطوات سريعة أخذها بين ذراعيه القويتين المريحتين، وأخذ يربت بيده على ظهرها ليهدئها، ثم قادها نحو السرير ليجلس معها هناك، وهمس بنعومة:

ـ وكيف يمكن أن تعرفي هذا وأنت تفتقرين إلى الخبرة؟

ومد يده ليضع رأسها على كتفه. فبكت قائلة:

ـ كان عليّ أن أعرف ما هي نوعيته.. لقد شككت أنت فيه.. لذا قلت لي أن لا أذهب معه إلى أي مكان. أليس كذلك؟

وأسكتها بسرعة محاولاً تهدئتها:

ـ لقد طردته.. انتهى أمره الآن.. لا تفكري به.

ـ أنا.. آسفة..

ولكن المشاعر التي بقيت لسنوات طويلة مكبوتة خرجت من قوقعتها العادية ولم تعد تستطيع أن تسيطر عليها بأي شكل كان. وأصبح تحفظها من الماضي، فقد كانت عطشى إلى كل ذرة من الراحة والأمان اللذان توفرانه لها ذراعه الملتفة من حولها، وضمت نفسها إليه، والتفت ذراعاها حول وسطه وهي تتمسك به بلهفة.

ورفع يده عن شعرها، ووضعها تحت ذقنها ليرفع رأسها كي ينظر إلى عينيها. كم يبدو غريباً أن شخصاً تكرهه كثيراً يمكن أن تشعر بمثل هذه الراحة بين ذراعيه. وكل ما خطر ببالها تحت نظرته المتفحصة، كم أنها تبدو سيئة المنظر له:

ـ لا بد أنني أبدو مريعة.

وكان هذا كل ما استطاعت قوله، وأصابعه الرقيقة تمسح الدموع عن وجهها المبلل. وقال بنعومة:

ـ أنت تبدين جميلة.

ومن حيث لا تدري، استطاعت أن ترسم ابتسامة على شفتيها، لأنه قال لها مرة انها تبدو جميلة عندما تبتسم.

وساد الهدوء الغرفة، ولم تعد كولين تبكي، ولم تعد تشعر برغبة في البكاء. كانت ملتصقة به، لأن شيئاً ما كان يحدث لها ولم تكن واثقة ما هو. وكل ما أصبحت أكيدة منه أنها قطعاً لا تكرهه أبداً. لأن التصاقها به هكذا لم يكن يبدو لها أمر خاطىء. وقال جوليانو:

- أعتقد.. أن علينا الذهاب الآن.

- أجل..

ولكنها لم تبعد ذراعيها عنه، كما لم يبعد هو أيضاً ذراعيه عنها. وقال وهو ينظر إلى عينيها:

- أنا...

ثم صمت ثانية ومدّ ذراعه الأخرى ليلفها من حولها في عناق ناعم طويل. وهمس في أذنها:

- لا تخافي..

وأرادت أن تقول له بأنها ليست خائفة، ولكنها لم تكن متأكدة من هذا، فلم تقل شيئاً، بل همست بصوت مرتجف «جولياتو» فقال بنعومة:

- هل ضايقتك؟

وردّت عليه هامسة «أوه.. لا».

واحمرّ وجهها لما قاله، وابتسم عندما شهد احمرارها. وهمس لها:

- تي كويرو.

- وماذا يعني هذا؟

فابتسم بحنان:

- أريدك... تي آمو.

وعانقها من جديد، وأحست بشيء في حنجرتها حاولت أن تهدئه فلم تستطع... كانت على وشك الانفجار بنوبة سعال حاد مؤلم. وانتابها الذعر لهذا، فدفعته بصدره ليبتعد عنها، وتركها على الفور لتجلس مرتاحة.

نوبة السعال لم تحدث. ولكنها علمت أنها أفسدت كل ما كان

يجري بينهما. وكانت على وشك أن تقول إنها آسفة، ولكن العبوس الذي شاهدته على وجهه منعها، ثم عاودها تحفظها من جديد.

وقال لها بخشونة:

- أنت دائماً تختارين اللحظة المناسبة يا كولين شادو، لتذكّري الرجل بأنك مريضة مؤخراً.. وتحتاجين للراحة!

كيف تستطيع أن تقول له إنها بخير؟ منذ دقائق كان بإمكانها أن تقول هذا، ولكن هذا قبل أن يعود تحفظها إليها. فالفتاة التي عادت لتكونها الآن لن تحلم أبداً بالقول له أي شيء قد يفسّره وكأنه دعوة له. وسألته وهي بحاجة لأن تبعد تفكيرها عما حدث للتو، أو عما أرادت هي أن يحدث:

- وكيف عرفت بأنني هنا؟

وابتسم لها ابتسامة أخبرتها بأنه أصبح يعرفها معرفة أكثر مما تفضّل أن يعرفها، وأجابها بقسوة:

- لقد عدت إلى المنزل لأجري مكالمة هاتفية حول حفلة عشاء عمل هذه الليلة.. ولكن قبل أن أقترب من مكتبي، ركضت تينا إليّ وأخبرتني أنك خرجت لتوك مع ماركو.. لقد استطعت أن تري بنفسك ماذا يحدث عندما لا تطيعين أوامري يا كولين؟

وتمنت كولين لو أنها تستطيع أن تكون قاسية مثله، لو أنها تستطيع أن تجد ذلك التمرد السابق في نفسها لتقول له إنها ليست أنثى مطيعة، حتى ولو أن أوامره بأن تبقى بعيدة عن ماركو ثبت بأنها مصيبة. ولكنها كانت قد مرّت برعب حقيقي، لم يترك في نفسها ذرة تمرد. وقالت له:

- لقد قلت إنني آسفة!

وأملت أن يترك الحديث في الموضوع، ولكنه لم يفعل بل سألها:

ـ لماذا أتيت إلى هذا المنزل؟ لقد ظننت أن منزلي مريح أكثر.

ـ المكان يعجبني.

ـ أتقولين بأن منزلي لا يعجبك؟

ـ ليس الأمر هكذا!

ـ وما هو إذاً؟

ـ أردت.. أن أعمل شيئاً. فأنا أشعر بخير الآن، ومليئة بالحيوية. لم أسعل منذ أيام.

واحمّر وجهها عندما تذكرت الوخز الذي شعرت به في حنجرتها في لحظة غير مناسبة أبداً. وبشكل لا يصدق وجدته وقد عاودته روحه المرحة عندما تذكر بدوره تلك السعلة الصغيرة التي لم تكن في وقتها المناسب، وأخذ يضحك وهو يقول:

ـ يجب أن تفعلي شيئاً حول هذا السعال المثير للأعصاب.

وترك لها أن تستنتج كل ما تريد من وراء ملاحظته. وعادت بسرعة إلى الموضوع الذي كانا يتحدثان به:

ـ أنا.. لست معتادة على الكسل. وأردت أن أقوم بعمل ما.

ولحسن الحظ نجحت في دفع تفكيره إلى اتجاه آخر، واختفت ابتسامته، ولكن قسوته لم تعد، وقال عابساً:

ـ لن تعودي إلى هنا ثانية.

ولم تعرف كيف ستعده بهذا، فقلة الحركة قد أثرت على أعصابها، وبما أن هناك الكثير من العمل هنا، وماركو مطرود، فهي لن تستطيع أن تعده بأن لا تعود إلى هنا لتكمل عملها، ولكن عليها أن تجد وسيلة أخرى إذا لم يقبل جوليانو بأن يوصلها إلى هنا...

وسمعته يقول:

ـ هل سمعتيني يا كولين؟

ـ لا أستطيع.. أن أعدك.

ورفعت إليه عينيها العنيدتين، ولاحظت أنه لا يهتم بعناد المرأة. ولكن الأمر الآن في قبضة يدها ولن تدع هذه الفرصة تفلت. وقال لها:

ـ حسن جداً... تعالي إلى هنا إذا أحببت.

وظنت أن الحديث انتهى، فوقفت، ولكنه لم يكن قد أنهى كلامه:

ـ مع أنني يجب أن أحذرك، حتى ولو أنني طردت ماركو خارج أملاكي، إلا أن الأملاك واسعة جداً ولا أستطيع ضمان أن لا يتسلل إليك في ليلة مظلمة. لقد قلت من قبل إن هذا المنزل كان محتلاً، ألم أقل لك هذا؟

هل هو يخدعها أم أنه جاد؟ وهل يعتقد حقاً أن ماركو قد يعود، أم أنه قال هذا كي يخيفها ويتأكد من أنها لن تقترب من هذا المكان ثانية؟ واعتقدت أن الفكرة الأخيرة هي الراجحة. ولكن حتى ولو كانت راجحة، فهي تعلم بأنها لن تخاطر. وظهر على وجهها ذلك الوعد الذي أراده جوليانو بأن لا تقترب مرة أخرى من هذا المنزل. لكن روح التمرد عاودتها أخيراً:

ـ أنت كذاب قذر.

وبدأ يضحك:

ـ هذا ليس لطيفاً منك أبداً يا سنيوريتا. بعد كل ما فعلته لأجلك!

* * *

وتناولت كولين عشاءها وحيدة، وعادت إلى غرفتها، وهي

منزعجة لأن رفيقها الوحيد على العشاء كان مرتبطاً بموعد عشاء عمل في الخارج، أو ربما هو يتناول العشاء مع امرأة. لا ينتابها سعال عصبي في اللحظة غير المناسبة.

عندما استلقت في فراشها عاودتها ذكرى ما قاله ساخراً «بعد كل ما فعلته لأجلك!» ولم تستطع أن تجد سبيلاً إلى النوم.

بالنسبة لها، ما فعله كان أكثر من إنقاذها من ورطتها في (كواريتارو). فهذا الصباح أيقظها من طفولتها وأدخلها إلى مرحلة الإثارة والعاطفة.

عند منتصف الليل، سمعته يعود، عندها استطاعت أن تنام. ولكنها استيقظت عند الواحدة، وشعرت بأنها لن تستطيع النوم ثانية فأضاءت المصباح الصغير قرب السرير وجلست.

وعاد التفكير في جوليانو يشغل ذهنها ثانية. واسترعى انتباهها دخول حشرة طائرة ضخمة تبلغ الثلاث انشات طولاً، عبر النافذة، لتقف على الطاولة الصغيرة قرب السرير.

وبقفزة واحدة خرجت من سريرها واتجهت نحو الباب، وفكّرت بذعر أن لسعة هذه الحشرة قد تكون سامة، وتحركت كولين بسرعة أكثر، ولم تتردد سوى لحظة قبل أن تفتح الباب وتخرج، ثم اتجهت إلى الغرفة التي أشارت إليها ايما مرة على أنها غرفة جوليانو، وصاحت:

ـ جوليانو.. جوليانو!

وحاولت أن تسيطر على رعبها، مع أنها أقفلت الباب على تلك الحشرة الخضراء المخيفة. وعندما فتح الباب وهو يلف الروب من حوله أكملت:

ـ هناك.. شيء ـ شيء في غرفتي!

ـ شيء؟

لا بد أنه كان لا يزال نصف نائم، ولكن عندما شاهد ذعرها استيقظ تماماً:

ـ ما هذا الشيء... ابقي هنا.

وأزاحها جانباً وسار باتجاه غرفتها، ولكنها لم تستطع تركه يدخل دون أن تنذره.

ـ إنها حشرة خضراء كبيرة، ولست أدري إذا كانت سامة أم لا.

ودون تردد فتح جوليانو الباب، ودخلت كولين معه وقلبها يخفق رعباً. رات، كما رأى هو، أن الحشرة لم تتحرك من مكانها، فهمست وهي خائفة أن تبعد عينيها عن الحشرة.

ـ ما هذه؟ هل هي خطرة؟

ـ عادة.. مثل هذه الوحوش، تجد لها مسكناً في شجر الخوخ.

ـ أعلم هذا. فهناك شجرة خوخ خارج غرفتي.

ـ يجب أن نتخلص منها يا كولين.. وعليك أن تكوني شجاعة جداً... فهل أنت شجاعة يا كولين؟

كانت تعلم أنها ليست شجاعة أبداً. فلو كانت مصنوعة من معدن البطلات لكان عليها أن تترك والدها عندما طلب منها شقيقها ذلك، وقالت كاذبة:

ـ أجل.. ماذا تريدني أن أفعل؟

ـ أعطيني يدك.

ووضعت يدها على الفور في يده، وهي تتمنى أن لا يشعر بارتجافها. وتقدم بها جوليانو نحو طاولة السرير، فأخذ العرق البارد يتصبب على جسدها، وهو يرفع يده الأخرى ويمدها، وراقبته حابسةً أنفاسها، وهي ترغب في الهرب، كلما اقتربت يده أكثر من

ذلك الشيء. وشجعت نفسها كي تطبق أي تعليمات يصدرها بالحرف الواحد.

ثم، وبعد أن بلغت أعصابها درجة الانهيار، أطبق جوليانو يده على الحشرة بسرعة وأمسك بها، واستدار نحو كولين وابتسامة تملأ وجهه من الأذن حتى الأذن.. وقال:

ـ أيتها الحشرة البريئة غير المؤذية، لقد أخفت كولين حتى الموت!

وبينما كانت كولين تقف مشدوهة وفمها مفتوح، ترك يدها وتقدم نحو النافذة حيث أطلق الحشرة!

حشرة خضار غير مؤذية! وتحول خوف كولين الفظيع إلى غضب شديد لم تعرفه من قبل فأخذت تصرخ.

ـ أنت خنزير! أنت شيطان كذاب قذر! لقد أرعبتني!

غضبها كان أكبر من أن تحتويه الكلمات، وكالوحش الكاسر تقدمت منه وأخذت تضربه بقبضتيها، وأمسك بمعصميها وقال ضاحكاً:

ـ أوه يا كولين! لقد كذبت أنت أيضاً. ولم أستطع أن أقاوم هذا المزاح، ليس بعد أن قلتِ لي كم أنت شجاعة.

ـ هذا ليس عذراً!

وأخذت ترفسه بقدميها العاريتين، وهي تتلوى كي تخلص نفسها، وكان لا يزال يضحك عندما سمعها تقول «أيها الهمجي المكسيكي» فردّ عليها:

ـ لقد ظننت أنك عاطفية هذا الصباح أيتها القطة المتوحشة، ولكن...

ـ اترك ما حدث هذا الصباح خارج هذا الموضوع!

ولم تلاحظ أن مقاومتها قد تسببت في وقوع كرسي على طاولة الزينة وأن حلية مكسيكية أثرية وقعت على الأرض.

وزادها الفشل غضباً، لأن محاولاتها للإفلات منه كانت دون جدوى. وعادت ترفسه ثانية. ولكن هذا أكد لها أكثر، وبألم، أنها حتى ولو خرجت عن طورها، فجوليانو يعرف تماماً كيف يسيطر عليها.

فبدون أي جهد، التقط ركبتها من خلف بقدمه، وقبل أن يسقطا إلى الأرض لوّحها كي يسقطا معاً فوق السرير. وما استردت أنفاسها حتى أحسّت بالفراش الثابت من تحتها وجسد جوليانو القاسي من فوقها. وعندها فقط ذهب عنها غضبها، بعد أن اجتاحتها أحاسيس مختلفة تماماً. وقالت: «جوليانو» ووجدت نفسها عاجزة عن قول المزيد فقال لها وهو ينظر في عينيها:

ـ لا بأس عليك.. سأتركك حالاً، ولكن دعيني أرتاح بقربك للحظات لأتمكن من الاعتذار عما فعله.

ما فعله كان يتلاشى من ذهنها أكثر فأكثر، وكل ما كانت تفكر به الآن أنها لا تريده أن يذهب. أرادت بقاءه، وهي تعلم أنه يريد أن يبقى، وقال لها:

ـ يجب أن لا نتعانق.. هل بإمكانك مسامحتي على تخويفك هكذا؟

ـ ولماذا.. فعلت؟

ـ أكثر من مرة نظرت إليّ نظرة ازدراء. وعندما أتيت بك إلى المنزل اليوم لم تكن هذه المرة الأولى التي تنظرين إلي فيها بازدراء. وكنت أخشى أن لا أستطيع مقاومة مشاعري عندما تصبحين دافئة أكثر معي.

رده أدهشها وجعلها تتحرك، وأحست به يتوتر، وسمعته يقول بانفعال:

- ابقي جامدة.. يا كولين.. بحق الله.

- أظن.. أظن أن عليك الذهاب.

الابتسامة في عينيه أعلمتها بأنه يعرف أنها تكذب، ولكنه تجاوز عن كذبتها، ربما ليعوض عنها الخوف الذي أصابها، وقال وهو يبتعد عنها:

- أظن أنك على صواب.

ولكن قبل أن يتحرك أكثر، سمعا صوتاً عند الباب، وأدركت كولين عندها أنه إذا لم يكن قرعها على باب جوليانو، وصراخها له بأعلى صوتها قد أوقظ أحداً، فإن صوت الكرسي يقع والحلية المكسيكية تصطدم بالأرض كافيان لإيقاظ كل من في المنزل. ولكنها لحظتها كانت مرعوبة ولم تفكر بكل هذا. ونظرت بسرعة إلى الباب ورأت أن تينا لم تكن لوحدها بل أن أمادو كان معها يقفان أمام الباب. ولم يكن هناك أي شك من التعبير الذي برز على وجه تينا ما قد تكون قد ظنته حول ما كان يفعله السنيور في غرفة نومها.

وقبل أن تصدر كولين أي صوت، وكذلك جوليانو، الذي لم يقم بأي مجهود ليشرح لهما عن موضوع الحشرة، ودون أن يصدر عن تينا وأمادو أية كلمة، ابتعدا عن الباب واختفيا عن النظر.

- لماذا لم تقل شيئاً؟

- وماذا كان عليّ أن أقول؟

- لقد ظنا.. ظنا أننا كنا.. كنا نائمين معاً.

- أولم نكن هكذا؟

ورفع حاجبه بطريقة ساخرة كانت آخر قشة تقصم ظهر البعير،

فقالت:

- ليس بالطريقة التي ظناها.

- وهل يقلقك ما تظنه تينا وزوجها الطيب؟

وتذكرت وجه تينا غير المبتسم، والابتسامتين الوحيدتين اللتان رمتها بهما، وعلمت تماماً أي منهما تفضّل. فقالت:

- نعم.. نعم يهمني.

وأدركت عندها من النظرة في عينيه أن ما سيقوله لها، إما أن يجعلها تضربه أو يسكتها.. ثم قال وهو يهز كتفيه دون اكتراث:

- حسن جداً... إذا كان رأي تينا وزوجها يقلقك لهذه الدرجة... فسأتزوجك.

•••

٧ ـ الخطوبـة

عندما استيقظت كولين لتواجه يوماً مشرقاً جديداً، تذكرت ما حدث ليلة أمس، وكيف أنها ردّت على جوليانو بأنها «ليست قلقة لهذه الدرجة» على قوله لها دون اكتراث «سأتزوجك». . ولم يتأثر أبداً برفضها له، وتوقف لإعادة الكرسي مكانها قبل أن يخرج بهدوء من الغرفة.

وتركت فراشها، في وقت ما من هذا النهار ستواجه مدبرة المنزل وجها لوجه. وكما توقعت، النظرات القاتمة كانت سيدة هذا اليوم. وحتى ايما، التي كانت دائماً مرحة ومتألقة، بدت متأثرة بتصرفات تينا الحادة وغير المبتسمة.

وعندما غادرت ايما إلى منزلها، صعدت كولين إلى غرفتها لتغسل شعرها خلال الوقت الباقي، وتمنّت لو أن هناك وسيلة سحرية تنقلها على الفور إلى انكلترا، فوجه تينا كان داكناً مثل الرعد طول اليوم، وحتى امادو نجح في أن يبقى صامتاً.

هل هكذا سيدوم الحال إلى أن تكسب ما يكفي لثمن تذكرتها؟ وكيف ستكسبها إذا كان جوليانو مصراً على أن يعاملها وكأنها نصف معاقة ولا يسمح لها بأن تفعل شيئاً؟

كان شعرها يشع بالنظافة والحيوية عندما ارتدت فستانها الطويل الوحيد، الذي تم غسله الآن عدة مرات مع كل ما تحتويه خزانة ثيابها، وهكذا أصبحت مستعدة للانضمام إلى جوليانو لتناول العشاء.

ولم يكن جوليانو على موعد عشاء في الخارج، ولا في مكتبته، بل شاهدته وهو على وشك الصعود على السلم عندما بدأت هي تنزل. وأحسّت بأنه يراقب كل خطوة تخطوها وهو واقف عند أسفل السلم، وعيناه مثبتتان على شعرها الأشقر اللماع، دون ذكر الاحمرار الفجائي الذي لوّن خديها لذكرى حرارة جسده بالقرب منها ليلة أمس. ولم يكن لديها أي شيء تقوله إلى أن وصلت إليه، فقال والابتسامة في عينيه وقد لاحظ ازدياد الاحمرار الذي غطّى وجهها:

ـ كنت على وشك الصعود لأصطحبك.

ـ أوه. . .

وتساءلت في نفسها لماذا لا تستطيع أن تتعامل مع ما حدث ليلة أمس بينهما بطريقة عفوية كما تفعل باقي الفتيات. ودون ذلك الخفقان في قلبها، الذي بدأ منذ أن شاهدته. وجمعت كل برودها لتتابع قولها:

ـ ستتناول العشاء في المنزل الليلة إذاً؟

وتلاشت الابتسامة عن وجهه على الفور لهذا التصرف المتعجرف. فصاح بها:

ـ توقفي عن هذا يا كولي!

وفهمت ما يقصده، ولكنها تظاهرت أنها لم تفهم محاولة الحفاظ على موقفها:

- أتوقف؟

وحاولت تجاوزه والمرور أمامه ورأسها مرفوع عالياً، ولكنه أوقفها وأمسكها بيده القوية بحزم ومنعها من أن تتقدم خطوة واحدة.

ونظرت بازدراء إلى يده على ذراعها، ثم إلى عينيه الزرقاوين.

ولكنه سيطر على الغضب الذي أثارته فيه بأعصاب فولاذية:

- هذا الاحمرار على وجهك يقول لي إن كولين شادو الطبيعية دافئة. امرأة بدم أنثوي كامل احتويتها بضع مرات بين ذراعيّ.. لذا تنازلي عن كبريائك يا كولين شادو.

وعادت الابتسامة إلى وجهه ثانية، ورفع حاجبه وهو يقول ممازحاً:

- إلا إذا أحببت بالطبع، أن أفعل شيئاً لأخرج المرأة الكاملة فيك، من مخبئها؟

وتهاوت عجرفتها المصطنعة، فقالت وكأنها تعتذر، فهي تعرف تماماً أنه لا يمزح، فقد فعل هذا بها من قبل:

- أنا.. متحفظة بطبعي.. و.. لا تظن أنني أتعمد العجرفة... فمرتين بين ذراعيك تكفياني...

- أنت لست بارعة في العد.

وبدا أنه تفهّم أن تحفظها أمر طبيعي فيها، فأنزل يده عن ذراعها وأشار إليها بنفس اليد أن تدخل غرفة الطعام. قائلاً ببرود:

- العشاء يبدو أفضل من هذا الحديث.

ومع عودة جوليانو لبروده، وغضب كولين، المختفي وراء تحفظها، كان جو العشاء غير مريح.

وزاد الأمر سوءاً بدخول تينا لتقديم الطعام، ولم تبتسم لأي منهما، وأخذت كولين تحرك اللحم والخضار دون شهية، فقال لها

جوليانو بعد أن خرجت مدبرة المنزل:

- ماذا دهاك بحق الشيطان؟

- لا شيء.

وجعله جوابها على حافة الانفجار. فصاح:

- بل هناك شيء وحق الجحيم! لم تأكلي ما يكفي لقوت عصفور، وتجنبتي النظر إلى تينا في كل مرة دخلت فيها إلى هنا... فهل أنت ضعيفة الشخصية لدرجة أن لا تتقبلي فكرة نسيان تربيتك الباردة حتى ولو في بعض الأحيان؟ هل هذه هي مشكلتك؟

- أنا لست ضعيفة الشخصية...

ربما كانت تظن هذا بنفسها، ولكنها علمت العكس بعدما غادرت انكلترا، ولكنه أطلق غضباً في داخلها، لم تكن تعترف بأنها تمتلكه، وأكملت كلامها:

- وإذا كانت شهيتي ضعيفة، فماذا تتوقع غير هذا وتينا تبدو وكأنها تأمل أن أختنق بكل ما آكله.

وصمتت فجأة، مرتعبة مما قالته. فقد جلس يستمع إليها مطبق الشفتين. وغادره غضبه، وانتابها شعور رهيب بأن كل ما فعلته هو أنها سببت المشاكل لتينا، وقال:

- تينا؟ وما دخلها بكل هذا؟

وأحنت كولين رأسها وقالت:

- إنها.. ليست غلطة تينا. فكلانا نعرف أنها امرأة تقية متدينة، وعندها مبادىء أخلاقية عالية.. ولا بد أنها صدمت لما.. لما شاهدته.. أو لما ظنته ليلة أمس.

- آه.. فهمت.

ولاحظت في عينيه تلك النظرة اليقظة التي تشير إلى أن عقله

يعمل:

- تينا تعاملك ببرود كعادتها.. أليس كذلك؟

فقالت بسرعة «لا يهم» ثم أدركت أن ليس هناك من سبب لتنزعج من أجل تينا فكلتاهما خادمتان عنده. وحاولت الابتعاد عن الموضوع فقد أرادت أن تذكّره بعملها، وأنها كلما بدأت العمل سريعاً كلما استطاعت مغادرة منزله في وقت أسرع، ولكن جوليانو كان البادىء بتغيير الموضوع.

- اخبريني المزيد يا كولين عن حياتك في انكلترا.

- أظن أنني أخبرتك كل ما يمكن أن يقال.

- لقد قلت لي إنك كنت تديرين أمر منزل والدك.. ولكن لا بد أن هناك أكثر من هذا.

- لقد كانت.. حياة... غير مهمة.

- ألم يكن لديك أصدقاء شبان؟

وتمنّت أن تقول له نعم، وتذكرت ذلك الولد الذي كان يسكن قربهم والذي عانقها يوماً وارتجفت لعدم إعجابها بهذه التجربة، ولكنها وجدت نفسها تقول:

- لم تكن أول رجل عانقني.

- ولكنك لم تتلقي الكثير من التدريب؟

- أنا.. لم أصل إلى مرحلة البطولة بعد.

ولم تدرك إلى أين يقود حديثه عندما سأل:

- ولكن ليس لديك شاب خاص.. في انكلترا؟

وفتح الباب وعادت تينا الغاضبة إلى الغرفة، فأجابت «لا» ولكنها لاحظت أن ردّها عليه لم يثر اهتمامه. وتوجهت ابتسامته إلى تينا وهو يتحدث إليها بالإسبانية.

والتفتت تينا إليها، فأدركت أنه قد تكلم معها في موضوع نظراتها المستنكرة لها. فقد ابتسمت تينا فجأة بأعرض ابتسامة وجهتها إليها، وليس ذلك فقط، بل استدارت حول الطاولة وتقدمت منها لتصافحها، والكلمات تتدفق من فمها، ولكن بعض الكلمات بدت مألوفة، فذهلت كولين وسألته:

- ماذا.. لقد قالت تينا شيئاً عن.. نوفيا والسنيورا! أنت لم تقل لها.. أنت لم تقل إنني خطيبتك أليس كذلك؟

وردّ عليها مسروراً:

- لقد ظننت أن هذا يسعدك.

- ولكن.. ولكنني قلت لك الليلة الماضية إنني لن أتزوجك.

- الأمر كان مختلفاً ليلة أمس... وأنا أعترف أنني قد استعجلت في اقتراح أن نتزوج.. فلم أكن أدري ماذا سأفعل لو وافقتِ. ولكنني لم أقل شيئاً اليوم عن الزواج منك.

- ولكنك.. قلت لتينا، إننا مخطوبان؟

- سي.. ولكنك تعرفين جيداً، كما أعرف، أن الخطوبة يمكن أن تفسخ بسهولة.

وجمدت في مكانها، فقد أدركت أنه تذكر معاملة شقيقها لايزابيلا، وأنه لم ينس ولا للحظة، العار الذي لحق بعائلته على يد أحد أفراد عائلتها. وهذا سبب عودة الجفاء إلى صوته عندما قال:

- وسأقدّر لك أن توافقي على اتفاقية ودية عندما نفسخ الخطوبة بيننا بدل أن أسمع بها مثل ايزابيلا ويعرف الجميع بأنك تخليت عني.

وكانت تريد أن تخبره أنها لا تنوي المشاركة بأية خطبة زائفة،

ولكن ما قاله أسكتها. فقد فات الأوان لإنكار الخطوبة إذا كانت لا تريد الإساءة إلى عائلته مرة ثانية. فقد أسرعت تينا خارج الغرفة لتخبر زوجها أمادو، ولا بد أنها الآن تستخدم الهاتف وأن نصف سكان «دورانغو» قد علموا بالأمر.

وصاحت كولين بوجهه:

ـ اللعنة عليك يا جوليانو انريكو.

فتساءل بكل براءة:

ـ وماذا فعلت؟

ـ تعلم جيداً ماذا فعلت! أنت تعرف أنني لا أستطيع نكران الخطوبة. دون أن..

وتوقفت عن الكلام فقد أدركت أنها ألزمت نفسها بهذا. وعلمت أنه أدرك ذلك أيضاً، عندها غادرته القسوة وانفرجت شفتاه، وتراجع قليلاً على كرسيه وقال بنعومة:

ـ لقد فعلت ذلك لحمايتك يا كولين الحلوة.

* * *

في الصباح التالي، انتظرت كعادتها منذ أن وصفها جوليانو بالمريضة، إلى أن خرج من المنزل، ونزلت إلى الطابق الأرضي. يبدو أن لا جدوى من المناقشة والغضب حول الوضع الجديد الذي وجدت نفسها فيه.

هل هذا يعني أنها ستصدق ما قاله جوليانو عن رايان؟ وقطبت غير قادرة على تصديق أن رايان الذي تعرفه، يمكن له أن يتقدم لخطبة فتاة ثم يهجرها بعد أن يعلم بأنها ليست الوريثة التي كان يظنها...

في الطابق الأرضي، كان اللقاء الذي استقبلت به يوم أمس لا

يقارن أبداً بما لقيته اليوم. فقد استقبلتها تينا بالابتسام وايما بالسعادة والفرح فمن الواضح أنها قد علمت بخطبة السنيور لها. وتقدمت لتصافحها بحرارة.

وبالتدريج بدأ جو المنزل السعيد يؤثر بها، وحان وقت الغداء، ثم مضى، وبدأت تحس بالراحة. وعند منتصف وقت بعد الظهر، وتينا ترتاح، وبيللا نائمة، وايما تقوم بكوي الثياب كانت كولين تقطع الردهة حاملة بعض ثيابها لتكويها في غرفتها فاعترضتها ايما رافضة تركها تقوم بالعمل بنفسها.. عندها التقت وجهاً لوجه مع جوليانو.

وأجفلت، وحاولت أن تقول بأنها لم تكن تتوقع رؤيته قبل العشاء، ولكنها فوجئت به يتقدم منها ويقبلها على خدها محدثاً صوتاً عالياً، ولم تستطع أن تبعده لوجود الثياب بين يديها، وحاولت التراجع، والرد عليه بحدة، ولكنه منعها بنظرة شيطانية وقال هامساً:

ـ يجب علينا أن نحافظ على المظاهر يا كولين.

ـ آه.. بالطبع.

فضحك وقال معلقاً:

ـ توقفي عن الجدية يا عزيزتي الصغيرة.. لم تكن قبلة بالمعنى الكامل.

ـ وهل هكذا تراني.. طفلة؟

فابتسم، والنظرة الشريرة لا تزال في عينيه وقال:

ـ قد تكونين محافظة، وغير مجربة يا صغيرتي كولين، ولكن بالرغم من هذا يجب أن تعلمي أنني عرفتك امرأة ناضجة عندما احتويتك بين ذراعيّ.. وأن المرأة الناضجة قد أثبتت نفسها في تجاوبك معي.

وإذا كان يبحث عن طريقة لمنعها من الجدل، وإذا كان هدفه السعي كي تحمرّ خجلاً، فإن كولين لم تخيب أمله، في أي من المسألتين، وقالت:

ـ سأراك عند العشاء.

ـ ولكنني أتيت إلى المنزل لأراك.

ـ لتراني؟

لماذا خفق قلبها لكلماته؟ ولم تجد الجواب رغم التركيز الذي بذلته، إلى أن ظنت بأنه يريد أن يتحدث معها حول الأسئلة التي تقلقها، فقالت:

ـ أوه.. بالطبع.. نحن لم نتوصل لاتفاق حول موعد إعلاننا أننا لن نتزوج.. أليس كذلك؟

وهجرته روحه المرحة في الحال، وقال لها بجفاء:

ـ سنتكلم في غرفة الجلوس.

ـ سآخذ غسيلي إلى...

وفوجئت بغضبه، وأمسك بثيابها المكوية ورماها على السلم. وأخذها من ذراعها وهو يقول:

ـ سنتكلم الآن..

وجرها نحو غرفة الجلوس الكبيرة، وبدا عليه أنه يجاهد كي يتغلب على الغضب الذي أثارته فيه، وقال لها:

ـ هذه أول فرصة لي لأعطيك هذا.

ووضع يده في جيبه، وأخرج منها علبة خاتم. وفتحها ليظهر فيها أبهى خاتم سوليتير الماس رأته في حياتها، وحدّقت غير قادرة على إبعاد نظرها عن ما يلمع ويشع في يده، ثم قالت وقد خنقتها الدموع:

ـ هذا.. ليس ضرورياً ل...

ـ بل هو ضروري جداً. أول ما ستنظر إليه تينا الليلة هو الخاتم الماسي الذي يعطيه المكسيكي عادة للأسباما المستقبلية.

زوجة المستقبل؟ ولكنها لن تصبح زوجته! لقد تمادى كثيراً، ولن تضع خاتمه، ولكن جوليانو أمسك بيدها ودفع بالخاتم في اصبعها، وقبل أن تدري ما ستقول، وجدت نفسها تصيح من الفرح.

ـ أوه، جوليانو.. إنه خاتم جميل جداً!

وبدا أن كلامها أسعده. أو ربما كان ذلك مجرد رضى لأنه تغلب على رفضها، ولم تتحرك لانتزاعه من يدها. فقال متودداً:

ـ الحلية المناسبة لأجمل يد.

ولكن كولين كانت قد استعادت تعقلها، فجذبت يدها من يده، ولم يتمسك جوليانو بها، وأنزل يده إلى جانبه مستعداً لتلقي المعارضة. ولكن معارضتها جاءت هزيلة جداً.

ـ هل ستتوقع تينا أن ترى خاتم الالماس في اصبعي عند العشاء حقاً؟

ـ ليس هذا فقط، بل هي تتوقع أن أطير بأسرع وقت إلى انكلترا لأطلب يدك من والدك.

ـ لا تستطيع أن تفعل هذا!

وتلقى جوليانو هذا بتكبر المكسيكي المفاخر، وهو يقول بخشونة:

ـ وهل سيعارض والدك؟

واخفضت كولين عينيها، فهي تشك في أن يكون والدها مهتماً بالأمر كثيراً. مع أن أي والد في الدنيا لا يتمنى صهراً أفضل من هذا المكسيكي الطويل الوسيم والثري. وما من اب يعارض في تسليم

ابنته إلى يد تحميها بشكل أفضل منه. ورفعت عينيها لترى الفخر والكبرياء في نظرته وهو ينتظر ردها. فقالت بهدوء:

ـ ما من أب قد يعترض عليك.. وبالتأكيد لن يكون أبي.. هل هذه عادة في بلدكم أن يسعى العريس لرضى والد العروس؟

وهز رأسه بالإيجاب، وشعرت بالسعادة عندما لاحظت أن التوتر المتكبر قد غادره. وقال شارحاً:

ـ العادة أن لا يطلب العريس بنفسه هذا مع أنه يكون موجوداً بالطبع. فالعادة أن يقوم والده أو شقيقه بالتحدث عنه.

وبدت هذه العادة جميلة ورسمية لكولين. وسألت سؤالاً لو أنها فكرت به لما سألته:

ـ وهل طبق رايان هذه العادة؟

فأجاب ببرود:

ـ لقد فعل، في غياب والده، لقد أثر على كاهن ابن عمتي بصدقه وجعله يقوم بهذا الدور. وكلانا يعرف كم كان صادقاً في مشاعره لايزابيلا عندما أخبرته أنها لا تتوقع أي مال خاص بها.

ـ شقيقي...

وأكمل بكل برود:

ـ إنه حشرة... سأراك وقت العشاء.

وتركها واقفة، وكان واضحاً إنه غير مهتم بكل ما قد تقوله للدفاع عن رايان. لم يكن لديها ما تدافع به عنه، ولكنها كانت واثقة أنه، بالرغم من طيشه وحماقته أحياناً، لم يكن أبداً من النوع الذي يستحوذ المال على عقله، ولا تستطيع تقبل فكرة أنه يجري وراء المال كوالدهما.

***

وابتسمت تينا لها ونسيت أن تقدم الحساء وهي تقول بدهشة:

ـ أوه.. بونيتا.. كم هو جميل!

ووقفت قرب كرسيها مبهورة بالخاتم الرائع في اصبعها.

وابتسمت كولين لها، لأنها في الحقيقة لا تعرف كيف ترد عليها. ولكن الابتسامة تلاشت حال إن غادرت تينا الغرفة، فقد دخل جوليانو وأخذ يحدق بها، وسألها بهدوء:

ـ هل أزعجك شيء ما؟

ـ ومن أين تريدني أن أبدأ؟

ـ لقد كنت تبكين.. لماذا يا كولين؟

لم تكن تريد أن تجيب، مع أنها تعلم أنها ستضطر. وسوف يعرف لماذا كانت تبكي قبل أن ينتهي العشاء. وتنهدت بيأس وقالت:

ـ لست واثقة من أنني أعرف ما بي... أنت، أنا، رايان...

ـ شقيقك؟

ـ أجل.. في كل مرة تسمع فيها اسمه تصبح شريراً!

ـ ولي أسبابي كما أظن. أهذا ما جعلك تبكين؟ ألأنني أصبح شريراً عندما أسمع ذكر شقيقك؟

ـ أنا لست مسؤولة عما فعل.

ـ أنت تعترفين إذاً بأنه مذنب؟

ـ لا.. أنا لا أعترف. ومهما تكن صفات رايان، فأنا أعرف أنه لا يهتم بالمال. إنه ليس كذلك.. وأنا أعرفه.

جوليانو لن يصدق أبداً ما تقوله للدفاع عن شقيقها، وهي مقتنعة بهذا، لذا فقد ذهلت عندما قال لها بعد تفكير:

ـ لقد كان عليّ أن أعيد النظر في رأيي بك يا كولين، وقد

يستغرقني وقت أطول لأغير رأيي بشقيقك.

وابتسم لذهولها لما قاله. وأضاف:

ـ هل يسعدك لو وافقت على أن لا أكون شريراً عندما نتحدث عن شقيقك فيما بيننا في المرة القادمة؟

ولم يكن أمامها مجال للتفكير بمدى تأثير سحره عليها، فقد دخلت تينا المبتسمة لتقدم الوجبة الرئيسية. ووجدت نفسها تقول بعد أن خرجت تينا:

ـ لقد ذكرت أنك قد أعدت التفكير برأيك بي.

ـ لقد أعدت التفكير برأيي أنك قدمت إلى هنا لاصطياد الثروة. اعتذاري عن هذا قد فاته الوقت كما أخشى. فهل ستسامحيني يا كولين الحلوة، لأنني فكرت بمثل هذه الأفكار عنك؟

ـ أولم تعد تفكر بأنني...

ـ لا.. لم أعد.

وعندما تكلم ثانية، كان حديثه في موضوع مختلف. وأدركت أن ما كان يفكر به عنها لم يعد مهماً أبداً.

ـ يجب أن نقرر بسرعة في أي يوم سنقيم حفلة خطوبتنا.

ـ حفلة خطوبة! ولكن لا لزوم لها.. حقاً.

ونظر إليها بعينيه الحادتين، وقال بصوت هادىء:

ـ أخشى أن تكون الحفلة ضرورية. فقد تلقيت التهاني عدة مرات اليوم، وهذه المكالمة الهاتفية قبل أن أدخل للعشاء كانت من شخص يتمنى لي السعادة، فقد أصبح خبر خطوبتنا في كل مكان.

ـ ولكن من السخف إقامة حفلة خطوبة ونحن نعرف كلينا أن الخطوبة ستفسخ وأنني لن أبقى هنا طويلاً.

ـ هل تفكرين بالذهاب إلى مكان آخر؟

ـ أنت تعرف هذا. فور أن أكسب ثمن تذكرة السفر، وهذا أمر آخر أود الحديث فيه، كيف سأكسب هذا المال في وقت أمضي فيه نهاري في كسل دون أن أفعل شيئاً؟

ـ كنت بحاجة للراحة، وأنت...

ـ ولكنني لم أعد أحتاج للراحة. فها أنا عالقة في بلد ليست بلدي، متلهفة لأقوم بعمل أكسب منه أجرة سفري، ومع ذلك فكل عرض أتقدم به للعمل يرفض. وكأن هذا لا يكفيني، فأستيقظ ذات صباح لأجد نفسي متورطة في خطبة إجبارية دون أن يكون هناك مجال للخلاص منها، لأنه.. لأنه..

ـ لأن ماذا؟

ـ اللعنة عليك! كيف أستطيع نكران الخطبة؟ لقد عانت عائلتك ما يكفي من إذلال من عائلتي.

ـ وهل هذا يزعجك؟

ـ ألن يزعج هذا أي إنسان لديه ذرة شرف وكرامة؟

ـ وهل تعترفين بأن شقيقك يفتقر للشرف والكرامة؟

ولم تبدو نظرة الشر في عينيه، كما وعد، عندما ذكر اسم شقيقها، ولكنها قلقت، فقد كانت لهجته حادة مع ذلك.

فقالت له بارتباك:

ـ هل يمكن أن نبقي شقيقي خارج الموضوع؟ الأمر ينتهي بنا إلى الخصام كلما ذكرنا اسمه.

ـ ألا ترغبين في الخصام معي؟

ـ لا.. لا أريد.

ولم تكن تريد حقاً، ولكنها في نفس الوقت لم تكن تريد الخضوع.

- كل ما أريده. . أن. . أن أخرج من هنا وأعود إلى بلدي.

وتأخر كثيراً في الرد حتى ظنت أنه لن يرد، وكأنه لا يهتم بما قالته. ولكنه أنهى صمته، وبدا في صوته نبرة سرور لم تكن متوقعة، وقال:

- من المستحيل عليّ أن أعلن في وقت قريب أن خطوبتنا قد انتهت، وبما أن الجميع الآن يعرفون بها فلا بد أنك تفهمين الأمر.

- أجل. .

فهي تعلم أنه سيكون هناك الكثير من الكلام إذا أعلنا أنهما غيرا رأيهما خلال أربع وعشرين ساعة، دون ذكر المعاناة التي ستتحملها لعودة تينا إلى امرأة مشاكسة كما كانت بالأمس. وقال جوليانو:

- ولكن. . أظن أننا ستمكن من تجنب إقامة الحفلة، وسأذيع بأن صحتك لم تصبح بعد ملائمة لمثل هذه الإثارة.

ولم تعترض، فبالرغم من شعورها بأنها بقوة الحصان، إلا أنها هي من بدأت بمعارضة فكرة الحفلة. فتمتمت قائلة:

- شكراً لك.

- وبما أنك متلهفة جداً للعودة إلى أرض ميلادك. . فأنا أقترح، وهذا يتعلق بموافقتك، أن نبقى مخطوبين لثلاثة أشهر، عندها نعلن أننا أخطأنا، ثم اشتري لك تذكرة سفرك إلى انكلترا.

- ثلاثة أشهر؟

- هل أنت موافقة؟

- أوافق. . وهل أستطيع العودة للعمل؟

- ليس من المناسب لخطيبة جوليانو انريكو غاتورادي أن تقوم بالأعمال المنزلية. .

وعلمت من لهجة التفاخر هذه أنها لن تستطيع الجدال، ثم

ابتسم، وغمرتها موجة من الافتتان بسحره، وقال:

- ولكن، إذا رغبتِ، بإمكانك مساعدتي في أعمالي المكتبية.

واعتادت كولين على العمل المكتبي بسرعة كما البطة معتادة على الماء. واكتشفت أن عدم معرفتها بلغته ليس عائقاً لها. فمعظم أعماله كانت مع شركات أميركية، وفي هذا المجال تركها تعمل. طباعتها على الآلة الكاتبة، بالرغم من استخدامها لاصبعين فقط، أخذت تتحسن أيضاً، كما لاحظت بعد اسبوعين، وأحسّت بسعادة أكبر لم تكن تتوقعها.

وإذا كان خجلها قد بدأ يذوب أيضاً فهذا شيء أسعدها أكثر، ولم تعد تتردد في دخول معقل تينا، المطبخ، بل كانت تجد الترحيب هناك كما في أي مكان آخر. ولاحظت في تينا حرارة أكثر تجاهها في هذه الأيام، وتمنّت أن لا يكون هذا بسبب خطبتها إلى السنيور فقط.

وسمح لها أيضاً بتذوق الطعام المكسيكي، دون بهارات كثيرة، وطعام الغداء كان يتألف في هذه الأيام من نوع يدعى «تورتيلا» يُحضر بعدة طرق: مع فاصوليا ويُدعى «فرايجولس» أو الجبنة ويدعى «تاكوس»، والتورتيلا المقلية مع اللحم والفلفل الأخضر والبندورة والخس وتدعى توستادس، وتورتيلا مطوية محشوة باللحم والجبنة والصلصة وتدعى «انشيلادس». ولكن الطبق المفضل لديها إضافة إلى القهوة بنكهة القرفة، كان الفلفل الأخضر الحلو المحشو بالجبنة والمغموس بالبيض، المطبوخ.

وتأملت كولين نفسها في مرآة غرفة نومها قبل أن تنزل إلى الطابق الأرضي لتبدأ عملها يوم السبت. لقد قال لها جوليانو إن لا لزوم لأن تعمل اليوم، ولكن هناك بعض الرسائل يجب أن تطبعها يوم

الاثنين، فالأفضل أن تطبعها اليوم، وابتسمت لنفسها في المرآة، وقد لاحظت أنها بدأت تكتسب اللون الأسمر، وأن هذا يناسبها.

وتركت المرآة، وفكرها مشغول بجوليانو، لم يكن قد لمسها منذ اليوم الذي قبّلها وهي تحمل الغسيل بحيث لم تتمكن من منعه. وتذكرت أيضاً ذلك اليوم الذي عاد فيه باكراً ليجدها في ثوب استحمام قديم من أيام المدرسة تتمشى قرب بركة السباحة. وكانت قد أنهت كل ما لديها من عمل... فقالت له:

ـ لقد كنت أعمل.

وابتسمت، فقد أنهت كل العمل الذي تركه لها، وبدت وكأنها تشعر بالذنب لأنه ضبطها وهي ترتاح. وأجاب ضاحكاً:

ـ أنا واثق من هذا. ولكن يُسمح لنا جميعاً ببعض التسلية.

وتجولت عيناه عليها وهي في ثوب السباحة. الطريقة التي تكلم بها معها، والطريقة التي توقف بها أمامها وانحنى حتى أصبح وجهه قريباً منها، كلها كانت تشير إلى أنه يلمّح إلى أن خطوبتهما تسمح له ببعض التسلية، وعندها تأكدت وقد اقترب وجهه منها كثيراً، أنه سيعانقها.

شعورها بأنها لن تمانع، جعلها تنهض بسرعة وتقول بخشونة:

ـ سأذهب.. وأستحم.

ودخلت المنزل، ولاحقتها ضحكة جوليانو، وأسعدها سماع ضحكته، وسألت نفسها: ماذا هناك في هذا الرجل الذي جعل مشاعرها الداخلية تثور بهذه الطريقة.

وغادرت كولين غرفتها، وأخرجت معها الصينية التي كانت تينا تصرّ على أن تحضرها لها كل صباح إلى غرفتها. ونادت تينا بمرح قائلة:

ـ بونس دياس تينا..

وردت تينا التحية وهي تبتسم، ثم توجهت نحو المكتبة، وغادرها مرحها عندما فكّرت بالساعات التي ستقضيها قبل رؤية جوليانو عند العشاء.

ودخلت المكتبة، عندها لم يعد لديها أي وقت للتفكير لماذا يجب أن تنزعج إذا لم تشاهد جوليانو قبل العشاء. فقد كان هناك في المكتبة، ولم يخرج. ولاحظت أن تعابير وجهه كثيرة الجدية وهو يقفل سماعة الهاتف، وعرفت أن شيئاً مريعاً قد حدث. فسألته بسرعة:

ـ ماذا.. حدث؟

ولم يجب جوليانو على الفور، ولكنه ثبت نظره عليها، وأحسّت من تأخره في الكلام أن ما حدث، لا بد أنه يعنيها، فسألته:

ـ ما الذي حدث؟ لا بد أنه حدث شيء ما.. أليس كذلك؟

وهز رأسه متجهماً:

ـ شقيقك... لقد أصيب.

•••

٨ ـ تبكي على صدره!

وانشب الذعر مخالبه فيها. وظلت مصدومة للحظات، وكل ما استطاعت أن تفعله هو التحديق بجوليانو، ومشاعرها تعلن أنه مهما يكن رايان قد فعل، فإنه شقيقها، وهي تحبه، ثم قادها جوليانو لتجلس، وانطلق منها سؤال:

ـ هل.. هل إصابته خطيرة؟

ـ سيعيش.. هكذا قيل لي.

ومن خلال انفعالها خطرت لها فكرة أنه لا يبدو مسروراً لأن رايان سينجو. فقالت ونظرة عناد على وجهها:

ـ أريد رؤيته.

ـ بالطبع.. سآخذك إليه.

ـ وهل تعلم أين هو؟ هل هو في دورانغو؟

ـ إنه في المستشفى في مدينة مكسيكو. الأفضل أن تحضري حقيبة صغيرة. فقد نبقى هناك بضعة أيام.

العمل كثير ومضني لجوليانو.. ومع ذلك فها هو يعرض عليها أن يترك عمله لبضعة أيام.. ولن تستطيع تركه يفعل هذا.

ـ لست بحاجة لأن تأخذني بنفسك. أستطيع الذهاب لوحدي.

وتركت كرسيها واتجهت نحو الباب، فقال بحدة:

ـ لقد قلت إنني سأصطحبك بنفسي.

لقد قرر رأيه بالنسبة لهذا. وكل ما ينتظره منها الآن أن تحزم

حقيبتها كي تبدأ رحلتهما. ولكنها توقفت عند الباب، وقد صدمتها خيبة الأمل لفكرة أنه لا يثق بها. فهل كان يظن أنها، مثلها مثل رايان، سوف تتخلى عن خطبتهما؟ وقالت واعدة:

ـ أنا... سأعود.

وأجابها بخشونة:

ـ هذا صحيح.. ولكن معي.

وكأنه كان متأكداً، رغم وعدها، أنها لن تعود، وستتركه مع حمل آخر من العار. وتابع:

ـ لديّ بعض الأعمال العالقة في مدينة مكسيكو.

وهكذا عاد إليها تحفظها الذي كانت تأمل أن تكون قد ودّعته إلى الأبد. واستمر معها إلى أن حطت الطائرة بهما في مدينة مكسيكو. وقال لها:

ـ أظن أنك ترغبين في الذهاب فوراً إلى المستشفى.

ـ أجل.. أرجوك.

ورافقها إلى خارج المطار وانتظر السيارة التي استأجرها، ثم وضع حقيبتيها في صندوقها، واستدار ليجلس في مقعد السائق. فقالت:

ـ هل بإمكانك إخباري كيف حصل الحادث؟

ـ حادث؟ ومن قال إنه حادث؟

ـ أتعني أنه لم يكن حادثاً؟ وأن اصابته مفتعلة.. عن عمد؟ يا إلهي.. لا!

ـ هذا جزاءه لهربه مع امرأة متزوجة.

أليس هناك من نهاية لما يمكن أن يفعله رايان؟ وابتلعت ريقها

بصعوبة، وارادت أن تعرف المزيد.

ـ أتحاول القول لي إن صديقته، التي ترك ايزابيللا لأجلها. . هي متزوجة؟ وهل تقول إن زوجها قد ضربه؟

ـ لو لم أكن أعرف زوج بولا فرناندو، وأعرف أن لديه العديد من الأشخاص ليقوموا عنه بهذا العمل. . لما تعجبت.

ـ ولكن هذا ليس عدلاً!

ولم يرد عليها، وكانت متأكدة بأنه يعتقد أن رايان يستحق كل ما حدث له، وأكثر ربما.

عندما وصلا إلى المستشفى، تركها جوليانو في قاعة الاستعلامات، ثم ذهب كي يسأل. وشعرت بأنها مدينة له، وأنها لا تستطيع مقاومة إعجابها به كثيراً في هذه اللحظات. وعاد جوليانو وقال لها:

ـ سآخذك إلى غرفته.

القسم الذي كان رايان فيه، يقع في أعلى المبنى الضخم، وعندما وصلا إلى هناك، توقف عند الباب، وقال ونظرة باردة على وجهه:

ـ سأنتظرك هنا.

النظرة التي كانت على وجهه، أخبرتها بأنه عند أول نظرة إلى الرجل الذي هجر ايزابيلا، فهو سوف ينهي ما بدأه غيره مع رايان، وفكرت أن عدم رؤيته له ستكون أفضل.

كان هناك ستة مرضى في القسم الذي يرقد فيه رايان، واحد فقط منهم كان ممدداً، وهو رايان، والباقون جالسون يراقبونها، وتقدمت من سريره، شعره الأشقر كان المظهر الوحيد الذي استطاعت أن تتعرف عليه من رأسه. . . فصاحت:

ـ أوه. . رايان! ماذا فعلوا بك؟

ـ كولين! كولين. . . من أين أتيت بحق السماء؟

الكلام كان مؤلماً له، ولكن دهشته لرؤيتها هناك، وهو يظنها في انكلترا، جعلته يتجاهل الألم، وأعطته ملخصاً لما حدث معها منذ وصولها لحضور زفافه، وأخبرها أنه لم يستلم رسالتها، وقالت له إن جوليانو انريكو قد عرض عليها، متلطفاً، وظيفة كي تكسب أجرة سفرها إلى بلادها. وقال متعجباً:

ـ أنت تعملين لجوليانو انريكو!

ـ وهل تعرفه؟

ـ سمعت عنه، ولم أكن أعتقد بأنه سيساعد أحداً من أقاربي أبداً.

ـ لقد كان لطيفاً جداً معي، أكثر مما ينبغي. ولكن المهم الآن، كيف تشعر؟

ـ وكيف أبدو؟

وقالت له متصنعة المرح. مع أنها أرادت البكاء على منظر وجهه:

ـ لقد شاهدتك من قبل بشكل أفضل.

وكان الكلام مؤلماً له، فلم تمكث طويلاً معه في زيارتها الأولى. وودعته بقبلة رقيقة، ولم تدر كيف استطاعت منع دموعها من التساقط، وهي تغادر القسم.

ولكن ما إن أغلقت الباب وراءها حتى أعمتها الدموع، وملأ رأسها وجه رايان المسكين المعطوب، مع أضلاعه المكسورة التي أخبرها عنها. ولم تعرف أين هي ذاهبة وهي تسير في الممر. ومن خلال دموعها شاهدت جوليانو يقف أمامها.

كان واقفاً دون أن يقول كلمة، عيناه على وجهها الذي تجاهد في السيطرة على تعابيره، وأعطتها ذراعه التي أحاطها بها شعوراً بالأمان، وهما يسيران نحو المصعد. وكانت ذراعه لا تزال حولها عندما خرجا من المصعد ثم أجلسها في السيارة، وقال:

ـ سوف نحجز في الفندق أولاً، ثم نتناول بعض الطعام.

ولم تكن جائعة، بل مصدومة، ولم تستطع أن ترد عليه، وأوقف السيارة في موقف الفندق تحت الأرض، وصعدا معاً إلى قاعة الاستقبال ليدبر غرفاً لهما. ثم استقلا المصعد.

وحجز لهما جناحاً من عدة غرف. وظل بجانبها إلى أن خرج الحمال من الجناح، فأخذ يتفحص غرف النوم. وعاد ليضع لها حقيبتها في الغرفة التي اختارها لها. ثم عاد وأمسك بذراعها ونظر في عينيها.

ـ لقد تحدثت مع الطبيب بينما كنت في زيارته.. سيكون على ما يرام يا كولين. بخير تماماً. وقال الطبيب إنه سيتمكن من الخروج بعد بضعة أسابيع. ولن يقولوا إنه سيغادر المستشفى لو أن إصابته خطيرة. أليس كذلك؟

وتنهدت بعمق وقالت وهي تبكي:

ـ أوه يا جوليانو... إنه.. يبدو بحالة رهيبة!

وجذبها بين ذراعيه، فدفنت وجهها في صدره وأخذت تبكي، بكل صدمتها لما حدث لرايان. وأخيراً، وهي لا تزال بين ذراعيه، جف دمعها، وشعرت بالخجل عندما لاحظت أنها بللت قميصه بدموعها. وقالت له:

ـ أنا لا أبكي أبداً عادة، فلماذا أبكي دائماً على صدرك؟

وتناولت المنديل الذي قدّمه لها ومسحت عينيها به، فقال

مداعباً:

ـ ربما لأنني دائماً أكون في المكان المناسب في اللحظة المناسبة.

في هذه اللحظة، اكتشفت اكتشافاً مرعباً، وصعقت حتى العظام لاكتشافها أن مشاعرها تتدمر كلما اقتربت منه، وكلما نظرت إلى عينيه الزرقاوين. وعلمت أنها قد وقعت في حبه.

وصدمت لمعرفتها أن هذا هو سبب خفقان قلبها في عدة مناسبات... مناسبات تكون فيها بين ذراعيه، أو حتى دون أن يلمسها، وأخذ يسير في الغرفة، وبدأ قلبها بالخفقان، وحدّقت به. فقال لها:

ـ هل أنت بخير؟ لقد فقدت شيئاً من لون وجهك.

ـ أنا على ما يرام.. الأمر عائد للصدمة فقط.. الصدمة لرؤية رايان هكذا.. أنا... هل تمانع إذا لم أذهب معك لتناول الطعام... لست جائعة أبداً.

ـ لماذا لا ترتاحين لمدة ساعة؟ لدي بعض المواعيد قد تمتد قرابة الساعة.

ولحاجتها للبقاء لوحدها.. فقد رأت أن هذا أفضل اقتراح سمعته منذ مدة طويلة.

وأمضيا في مدينة مكسيكو أكثر من بضعة أيام. وأملت كولين أن يكون ما شعرت به من حب لجوليانو هو محض خيال، لكن في الأيام التي تلت كانت تغوص أعمق وأعمق في حبه، واقتنعت أن هذا الأمل كان أملاً فارغاً... بعد أقل من شهرين، سوف تفترق عنه، ولم تستطع أن تفكر كيف ستتمكن من هذا.

أيامهما هناك، أصبحت روتينية بخروج جوليانو في الصباح

لمتابعة أعماله، ويعود دائماً ليصطحبها إلى المستشفى لزيارة رايان، ولم يعرض عليها مرة واحدة أن يدخل ليراه. واحترمت مشاعره، ألم يفعل لها ما فيه الكفاية، ألم يسافر معها إلى مدينة المكسيك بعد ساعة من تلقيه الخبر؟ ولم تطلب منه هذا أبداً. وبعد كل مرة تزور فيها شقيقها، كان يقودها في السيارة خارج المدينة، إلى مكان يبعدها عن التفكير بشقيقها وما حلّ به.

يوم الأحد، اصطحبها جوليانو إلى بلدة سياحية تدعى «كويرناكاكا» يقال بأنها أقدم منتجع في المكسيك، ومن هناك ذهبا إلى بلدة مناجم الفضة «تاكسكو» أجمل بلدة جبلية. ويوم الاثنين ذهبا إلى «كواناجويتو» المدينة التي تحوي أروع شبكة من الطرقات تحت الأرض، تمتد تحت المدينة تماماً. . وهناك دلّها جوليانو على المنزل الذي عاش فيه «دياغو ريفيرا» أشهر رسام مكسيكي.

ومن هناك أخذها إلى «سان ميغال الاند» المكان المعروف بإقامة اكبر مجموعات من الفنانين فيه. وهناك تناولا العشاء. وقال لها جوليانو:

ـ والآن. . ماذا نستطيع أن نفعل لنشجع شهيتك؟

لم تفته ملاحظة عزوفها عن الطعام، ولكن بسبب رغبتها في إرضائه، حاولت جاهدة التفكير بشيء فقالت:

ـ أظن أنني أرغب في البيتزا.

وقرّب وجهه من وجهها، وظنت أنه سيعانقها هنا في الساحة وأمام الجميع، وأخذ قلبها يخفق، وتلاشت الابتسامة عن وجهها، فهي تريده أن يعانقها، ولكنها كانت خائفة، خائفة من أن تتعلق به أكثر من اللزوم. وعندها سيفضح سرها.

ولكن على الرغم من أن وجهه كان قريباً منها إلا أنه لم يعانقها،

بل رفع يده ليمرر اصبعه على وجهها قائلاً:

ـ إذاً سنتناول البيتزا يا سيدتي.

وسار بها من الساحة المكتظة بالناس، إلى شارع جانبي منحدر وتوقف أمام مبنى عليه لافتة كتب عليها «هاماميا» وسألها:

ـ في الداخل أم في الخارج.

ـ بل في الخارج.

وتشاركا معاً في تناول «بيتزا» عملاقة وُضعت أمامهما على طبق كبير. وهما جالسان إلى طاولة خشبية كبيرة في الفناء الخارجي. وأكلت حصتها حتى آخر قطعة. ثم جلست معه تحت حفيف أوراق الشجرة التي تتدلى من فوقهما، شجرة مشمش كما اعتقدت. في داخلها، لم تعد متأكدة من شيء، كل ما كانت أكيدة منه أنها تقع في حبه أكثر فأكثر، وحبها له قد بدأ يحرقها.

بحلول يوم الثلاثاء، طرأ تحسن طفيف على حالة رايان. وزال التورم عن وجهه، وأصبح قادراً على السير في القسم قليلاً. وبما أن الألم قد أصبح أقل الآن فقد ظنت أنه حان الوقت لتسمع القصة منه.

ولم تكن تدري من أين تبدأ، وأحسّت بالسرور عندما لم يبدو محرجاً لذكر اسم بولا. وقال بصراحة أخوية:

ـ لن أبقى هنا يوماً واحداً أكثر مما يجب.

ـ ولكن الطبيب يقول. . .

ـ لا تقلقي يا كولين، لن أقوم بأي تصرف غبي. ولكن بولا تنتظرني في أكابولكو وسوف أذهب إلى هناك بأسرع وقت ممكن.

ولكنه ليس في حالة تسمح له بالذهاب إلى أي مكان، وخاصة إلى أكابولكو، التي تبعد أميالاً كثيرة. ولا بد أنه يدرك هذا. ولكنها

تعرفه جيداً، وتعرف أنه سيحاول هذا بالتأكيد. لذا تركت الكلام في هذا، وقررت أن تركز الحديث حول بولا:

ـ الأمر جدي إذاً.. بينك وبين بولا؟

ـ بإمكانك المراهنة على حياتك بأن الأمر جدي. يا إلهي.. أتظنين بأنني كنت سأفسخ خطوبتي لايزابيللا في هذه المرحلة المتأخرة لو لم يكن الأمر جدياً؟

وبدا مستعداً للحديث بصراحة، فقالت له أول ما خطر ببالها:

ـ إيزابيللا، وعائلتها، يظنون أنك تخليت عنها لأنها قالت لك إن والدها ليس ثرياً.

ـ يا إلهي! كم هم جماعة متفاخرة. كنت أتوقع أن يظنوا هذا بدل تصديق القصة الحقيقية. أنت لم تصدقيهم.. أليس كذلك؟

ـ لم أستطع تصديقهم. مع أن الفتاة المسكينة كانت مصدومة بشكل رهيب لأنك أخبرتها متأخراً جداً بتغيير رأيك.

ـ الأفضل لها أن تنزعج الآن من أن نتزوج ثم أتركها لأذهب مع بولا فيما بعد.

ـ وهل كانت بولا سبب فسخك الخطوبة؟

ـ قابلتها بعد وقت قصير من إعلان الخطوبة، وكنت أعتقد أنني أحب ايزابيللا. حقاً، ولكن بعد دقائق من حديثي مع بولا، عرفت أنها المرأة الوحيدة المناسبة لي. ومع ذلك حاولت أن لا انكث بوعدي لايزابيللا يا كولين.. صدقاً لقد حاولت. ولكنني كنت أقابل بولا صدفة باستمرار، وكانت هذه اللقاءات تشعرني بأنني عدت إلى الحياة. إنها متزوجة من رجل قذر وغير سعيدة معه، ولاحظت الطريقة التي يعاملها بها، ولم أستطع تحمّل هذا.

ـ وهكذا هربت معها.

ـ لا شيء كان يمكن أن يمنعني بعد أن عرفت بأنها تشعر بنفس مشاعري. ولكنني كنت أعرف أن هناك صعوبات ستواجهنا.

ـ وهل بحث عنك زوجها؟

ـ بكل الطرق! بولا وأنا كان معنا مال يكفينا لسنة، ولكن بعد اختبائنا لبضعة أسابيع، فكرت أن نعود إلى مدينة مكسيكو حيث يمكن ان أجد عملاً. وكانت واثقة أن زوجها سيلحق بنا، وفي يوم لمحت أحد أشقاءه.

ـ أوه.. ولماذا لم تهرب..

ـ أهرب؟ أنا أحب بولا، وأريد الزواج منها، لم أستطع يا كولين، وهل أمضي بقية حياتي هارباً؟

ـ ولكن بولا ذهبت إلى أكابولكو.

ـ لا تظني أنه كان سهلاً عليّ إقناعها بالذهاب. إنها عنيدة جداً. ولكنني لم أرغب أن تكون موجودة عندما تتطاير اللكمات. واكتشفت بولا أنني أعند منها.

ـ وهل.. هل تعلم بما حدث لك؟

ـ ان الاخوة فرناندو ضربوني؟.. بأقل تفاصيل ممكنة، فأنا أتصل بها يومياً.

ـ وهي تتوقع أن تنضم إليها في أكابولكو؟

ـ لا أريدها أن تعود إلى مدينة مكسيكو حتى أتأكد أن الاخوة فرناندو قد غادروها.

وأخذ يتحدث عن بولا. وكيف أن كولين ستحبها إذا تقابلا.

وبدا واضحاً أن شقيقها متيّم بحب بولا، وبما أنها غارقة في الحب بنفسها. لم تستطع سوى أن تتمنى لواحد من عائلة شادو على الأقل أن يجد السعادة في حبه...

وقبل أن تنهي زيارتها أخبرته عن نية والدهما الزواج من آغي باركر وقالت:

ـ لا بد أنهما تزوجا الآن.

ـ أرجو أن يسعدها أكثر مما أسعد والدتنا.

وهذا ما ترك لكولين شيئاً تفكر به وهي تغادر المستشفى. فرايان اكبر منها بخمس سنوات، وبإمكانه أن يتذكر كيف كانت حياة والدتهما مع والدهما، وإذا كانت تلك الحياة تماثل حياتها معه الخالية من السعادة، فلا بد أنه لم يكن هناك سعادة في زواجهما.

ـ هل حدث شيء لرايان؟

وتقدم جوليانو منها، وكانت هذه المرة الأولى التي يستخدم اسم رايان فيها. وتبددت الأفكار التعيسة من ذهن كولين على الفور، كالسحر، مجرد رؤية جوليانو، مجرد سماعه يتلفظ باسم شقيقها دون عدائية، جعل عينيها تلمعان كالنجوم، وقالت:

ـ إنه بخير. . . إنه يتحسن.

ـ ولكنك تبدين مستائة.

ـ أوه. . لقد كنت أفكر بما قاله لي رايان.

ولم يتحرك ليفتح لها الباب كما هي عادته، بل وقف منتظراً أن تتابع كلامها، وتخبره ما الذي أزعجها، وكأنه يجذب الكلام منها جذبا:

ـ لقد كان. . يخبرني عن الأوقات التعيسة التي مرّت بها أمي مع أبي قبل أن تموت.

ـ وحياتك لم تكن فراشاً من ورود أيضاً. . أليس كذلك؟

ـ الورود لها أشواك. . أليس كذلك. وهي غير مريحة أحياناً. رأيك بأن رايان لم يتزوج ايزابيلا لأنه اكتشف أن المزرعة لك

وليس لوالدها كان رأياً خاطئاً على فكرة، فقد أحب بولا لدرجة لم يستطع أن يفعل شيئاً سوى. . .

ولكنها كانت تكلم نفسها، فقد تركها جوليانو وذهب ليفتح الباب لها. ولأن وجهه كان متجهماً، فلن يدهشها أن يأخذها رأساً إلى الفندق. لذا كانت مفاجأة لها عندما رأته يسير عبر زحام السير، ثم يخرج بها خارج مدينة المكسيك. فسألته:

ـ أين نحن ذاهبان الآن؟

وعندما لم يرد، اعتقدت أن مزاجه متكدر ولا يرغب في الكلام معها. وأدارت وجهها عنه وقد ملأت الدموع عينيها، وارتفع رأسها بكبرياء وهي تحدّق خارج النافذة، ثم جفت دموعها بنفس السرعة التي تدفقت بها. فقد بدا أن جوليانو قد قام بمجهود خارق للسيطرة على أعصابه، وسألها:

ـ هل تحبين رؤية الاهرامات القديمة؟

ـ أنستطيع ذلك وأين؟ هل هناك منها في مكان قريب؟

ـ في «تيو تيهواكان». .

ووجدت كولين «تيو تيهواكان» مكاناً شديد الروعة. فالموقع الرائع يحتوي على هرمين ضخمين جداً، الأصغر، رغم ضخامته، كان هرم القمر، والأكبر هرم الشمس. وكان هناك مبان أخرى تاريخية، مثل معبد «كوتزا لكوتل»، وكلها موجودة على طول شارع عريض اسمه «شارع الموت».

ولكن قبل أن تسير إلى أي مكان، أصرّ جوليانو على أن يتوقفا في أحد الأكواخ العديدة القريبة حيث يباع كل شيء ابتداءً من سجاد الجدار المكسيكي، إلى قطع الشطرنج المصنوعة من الاينوكس، واشترى لها قبعة قش، وبطريقة احتفالية، وضعها على

رأسها، ثم تراجع ليبدي إعجابه بها:
ـ ظريفة جداً.
وضحكت كولين، وصمّمت أن لا تفكر بما سيحدث بعد شهرين من الآن. ووجدته دليلاً سياحياً رائعاً، قادر على الإجابة على أي سؤال: هل عاش الأزتكيون هنا؟ ومن هو كواتزلكوت؟ والعديد من الأسئلة الأخرى.. ولم يحاول استعجالها، وتسلق معها الهرم درجة درجة، وبدا مستعداً للوقوف تحت حرارة الشمس قدر ما تريده، كي تتأمل مناظر الريف المحيطة بهما.. إلى أن تذكرت كولين أنها ترتدي قبعة بينما جوليانو عاري الرأس.
وبدآ ينزلان درجات الهرم، وبما أنها لم تكن متعودة على المرتفعات، كانت تتردد في وضع أي رجل قبل الأخرى ولاحظ جوليانو هذا وقال لها:
ـ تمسكي بي...
وقدم لها ذراعه القوية الثابتة لتمسك بها، وعندما وصلا أسفل الهرم، شعرت بالارتياح وشكرته، فقال مداعباً:
ـ أنت أردت أن تتسلقي.
ـ أردت أن لا يفوتني هذا.
وضحكت، فقد أحسّت وكأنها ستنفجر من السعادة بعد أن عاد لمداعبتها.
تلك الليلة، لم يكن النوم مشكلة لها. وبما أنهما يتشاركان نفس الحمام، وجوليانو يبقى مستيقظاً ليقرأ أو يعمل، فإنه لم يستطع تجنب رؤيتها وهي تمر أمامه بثياب النوم.
يوم الأربعاء، بدا أن رايان قد خطا خطوات واسعة نحو الشفاء. وارتاحت كولين لأنه لم يذكر بأنه سيغادر المستشفى عندما يشعر بأنه

على ما يرام. وخرجت من المستشفى وفي رأسها فكرة أن تجد الشجاعة الكافية لتطلب من جوليانو أن يتحدث إلى الطبيب لأجلها.
بعد الظهر اصطحبها إلى الحدائق العائمة في «كوشيملكو»، ونسيت كل شيء فيما يتعلق برايان، بعد أن استحوذ عليها ذلك الموقع الرومانسي.
وجلسا في قارب مزين بأوراق الأزهار، سار بهما فوق الماء، مارين ببائعي زهور على مراكب صغيرة، وآخرون يبيعون الطعام. ولكن سعادة كولين لم تعد تعرف حدوداً عندما تقدمت فرقة عازفين «ميراشيري»، معتمرين قبعات عريضة للرعاة المكسيكيين، وتوقف جوليانو ودفع لهم أجرهم، وبدأوا بالعزف.
وبعد أن انتهت رحلتهما في المركب قالت له وهو يساعدها على النزول إلى الشاطىء:
ـ كانت نزهة رائعة.
ـ كنت أعتقد بأنها ستعجبك.
ـ لا يجب عليك أن تأخذني إلى مثل هذه النزهات، أعني إذا كانت تضجرك.
ـ وهل قلت إنني ضجرت؟
ـ حسناً.. لا، ولكن.
ـ إذا لم تحسني التصرف.. لن آخذك إلى حفلة الفولكلور الراقصة هذه الليلة.
ـ الليلة؟
ـ عادة يقيمون مثل هذه الحفلات يوم الأربعاء ويوم الأحد.
ـ أوه.. ولكنك تريد العودة إلى دورانغو يوم الأحد.
ـ سوف أنتهي من أعمالي عندما يأتي يوم الأحد.

ـ أجل . . أجل . . بالطبع ستنتهي .

وقابلتهم عاصفة رعدية في مدينة مكسيكو. ولأنها تحب التفرج على العواصف، لم تستطع مقاومة رغبتها في الخروج لمشاهدتها في الشارع، على الرغم من وجود طريق مسقوف من المرآب إلى الفندق.

وشق السماء برق عنيف، ولكنها لم تخف، بل أجفلت عندما امسكتها يد قاسية لتجذبها ويقول لها جوليانو:

ـ أليس عندك عقل؟

ثم جرها وراءه إلى الفندق.

وكان لا يزال غاضباً عندما وصلا إلى جناحهما، وعيناه الغاضبتان تنظران إلى المطر في الخارج الذي لم تشاهد مثله من قبل.

ثم ودون أن يخطو خطوة، بدا وكأن شخصاً آخراً يسيطر عليه، فارتفعت يده ببطء، وبدأ يتحسس خدها. وارتفع اللون الأحمر إلى وجهها، كانت تريد أن يلمسها، بحاجة إلى هذه اللمسة، ولكنه اشاح بوجهه عنها بحزم.

وراقبت كولين، وكأنها تراقب فيلماً بالسرعة البطيئة، اللون يغزو بشرته، بعد أن أدرك ما كان سيفعله. ثم أصبح صوته خشناً، خشناً لدرجة لم تسمعها منه طوال هذا اليوم.

ـ لأجل الله . . اذهبي وغيري ملابسك.

وذهبت كولين بسرعة، ولكنها سمعته يتمتم:

ـ يا إلهي . .

ثم قال شيئاً عرفت من معلوماتها القليلة بالإسبانية أنه يعني:

ـ أنا بحاجة لشراب قوي كي أهدأ.

●●●

٩ ـ حرّة، ولكن . . .

وغادرته روحه المرحة وبدا أنها لن تعود عندما انضمت إليه لتناول عشاء باكر قبل ذهابهما إلى الحفلة الراقصة، وأوشكت أن تقول له أن ينسى أمر الحفلة. ولكنها علمت أن الحصول على التذاكر لم يكن سهلاً، فآثرت الصمت.

ومع ذلك فقد ظل لطيفاً معها كما كان دائماً، ولكن كان ينقص تلك اللمسات، وتلك اليد التي كانت تقودها، وهما يتجهان لدخول «قصر الفنون». وكانت واثقة في قرارة نفسها أنه سئم من اصطحابها إلى أماكن لا بد أنه زارها العديد من المرات. وصممت على أنها في الغد، عندما يلتقيها في المستشفى، سوف تدّعي صداعاً وتعود إلى غرفتها.

روحها المعنوية كانت منخفضة لدرجة أنها ظنت أن من المستحيل أن تتمتع بالحفلة التي كانت على وشك أن تبدأ، ولكن ما إن بدأت أول رقصة، التي تصف بدء العالم، الازتيكي، وتبعتها رقصات أكثر بهجة وألواناً، ثم المغني والممثلين، ثم رقصة القبعات المكسيكية الشهيرة، حتى غمرتها السعادة ونسيت أفكارها.

وبدت بهجتها واضحة على وجهها، وهما يغادران مقعديهما، وغير قادرة على شكر جوليانو بما يكفي، وقالت له وعيناها تعكسان مدى سعادتها إنها لم تكن تعتقد أن الحفلة ستكون جميلة هكذا.

وظنت أنه سيبتسم، ولكنه عاد إلى عبوسه. فهي كالبلهاء خرجت لتقف تحت المطر. فلماذا فعلت هذا؟ ألم يكن الأفضل لها أن تبقي هذه الرغبات العفوية مدفونة فيها؟ فلو لم تخرج تحت المطر لما شعر بالرغبة في معاملتها كطفلة، وهذا أمر أزعجها أكثر، لأنها كانت تريد أن ينظر إليها كامرأة، ولا تريده أن يعاملها مثل... مثل شقيقة صغيرة له.

عندما بلغا جناحهما، أخبرتها نظرة إلى وجهه أن أفضل خدمة قد تؤديها له هي أن تتمنى له ليلة سعيدة وتذهب إلى فراشها، ولكنه أوقفها بالطريقة التي كان دائماً يدهشها بها قبل أن تتمكن من إلقاء تحية المساء عليه.

ـ هل ترغبين في شيء.. تأكلينه أو شراب من أي نوع؟

ـ لا شكراً لك.

كانت تشعر أنها على وشك البكاء، وأرادت أن تكون لوحدها، وتقدمت خطوة نحو الباب، ومرة أخرى لم تتح لها فرصة قول «تصبح على خير» إذ قال:

ـ هل.. صحة أخيك تتحسن؟

وكأنما خرج منه السؤال رغماً عن إرادته. وعاد الكبرياء إلى نفسها ثانية، كلما أسرعت في إراحته من واجب العناية بها كان أفضل. ونطقت باسم أخيها متعمدة:

ـ رايان؟ إنه يتحسن بشكلٍ غير عادي. ولن يطول به الأمر حتى يصبح قادراً على مغادرة المستشفى.

ـ أنا مسرور لسماع هذا... فلن يكون عندك أي اعتراض إذاً، إذا عدنا إلى ديارنا مساء الغد؟

الديار.. أرادت أن تبكي عندما سمعت هذه الكلمة، ولكن كبرياؤها منعها. هي ترغب في العودة إلى الديار معه، إلى دورانغو، ولكن بالطريقة التي قالها علمت أنه سيسر كثيراً إذا استطاع أن يتخلص منها. فقالت وهي تعض شفتها:

ـ أنا... أظن أن رايان يستطيع العناية بي الآن.

يا إلهي.. يجب أن يكون جوليانو سعيد لهذا القول، ولكن بدلاً عن ذلك قطب جبينه وبدا وكأنه الرعد الأسود. وتابعت كلامها:

ـ لن أعود...

وكان هذا كل ما استطاعت قوله، إذ تقدم منها بخطوة واحدة، وأمسك يدها اليسرى، ورفعها أمام عينيها:

ـ وهل نسيتِ هذا؟ أنسيتِ أنك تضعين خاتمي؟

ـ لا.. لا. ولكنك كنت.. كنت.. حسنا.. لقد ظننت، بما أنك قد ضجرت من.. هذا الوضع.. فقد تكون هذه اللحظة المناسبة لفسخ...

ـ سأعلمك عندما يصبح الوقت ملائماً لفسخ الخطوبة.. فقد اتفقنا على أن تكون الخطبة لثلاثة أشهر، أتذكرين هذا؟

وادركت كولين أنها مهما حاولت التمسك بكبريائها، فلن تستطيع المزايدة عليه في هذا المجال.

وقال وهو يصرّ على أسنانه:

ـ عندما أعود غداً إلى دورانغو ستأتين معي.. مفهوم؟

لقد حاولت، بالرغم من معارضة قلبها، فقد حاولت، وتذكرت الأيام الماضية التي ظلت فيها معه، وهذه النزهات التي رافقته فيها،

بينما كان يستطيع بكل سهولة أن يتركها لوحدها، فأحسّت بلين مشاعرها، وأحسّت أيضاً أنها ستبقى دائماً مدينة له.. فقالت بهدوء:

ـ لقد فهمت.

وتخلى عن عبوسه، وتقبّل موافقتها بابتسامة. وفوجئت كولين نفسها بتصرفها العفوي. فدون أن تدري تماماً ماذا تفعل، تقدمت منه وطبعت قبلة على خده.

وارتفعت يداه إلى ذراعيها، وظنت انه سيجذبها إلى ما بين ذراعيه، ولكن الحركة التالية التي قام بها، كانت أن دفعها عنه وقال بصوت أجش:

ـ لماذا فعلتِ هذا؟

ـ لأنني شاكرة لك.. لكل ما فعلته لأجلي.. وللوقت الذي قضيته معي خارج مزرعتك...

ـ عندما أريد عرفانك بالجميل، سأطلبه!

ثم أضاف ساخراً وهو يدخل غرفة نومه:

ـ وهل غاب عن بالك انني كنت أعمل منذ وصلنا إلى هنا؟

وهكذا، وبوضوح، اخبرها عن السبب الرئيسي لقدومه إلى مدينة المكسيك وأن هذا لم يكن بسببها. وقد أزعجه شكرها له. ربما يضايقه جداً أن يساعد فرداً من عائلة شادو.

كانت متأكدة أن وقتاً طويلاً سيمضي قبل أن تستطيع النوم. فارتدت ثياب نومها ووضعت كل شيء آخر في الحقيبة ما عدا ما سترتديه غداً. ليس أمامها خيار سوى أن تعود معه إلى دورانغو، والطريقة اللطيفة التي عاملها بها قد انتهت الآن، وتأملت أن يمضي ما تبقى من الشهرين بسلام.

في الصباح التالي، كانت ثقتها بنفسها أكبر، وعاد إليها تحفظها، بقوته الكاملة، عندما انضمت إليه في غرفة الجلوس. وكانت قد سمعت وصول الإفطار قبل دقيقتين. ولكنها فقدت شهيتها عندما حياها تحية الصباح بطريقة جافة. وأعطاها هذا فكرة عما ستكون عليه الأمور من الآن وصاعداً، وهي تصب فنجان قهوتها. وقال لها:

ـ أمامي يوم مليء بالعمل. وقد لا أعود إلا قبل موعد سفرنا بوقت قصير.

وما كان يريد أن يقوله في الواقع، أنها إذا كانت تتوقع أن يصطحبها في نزهة بعد زيارة شقيقها، فالأفضل أن تنسى الأمر. ولكنها بدأت تحس بالصداع على كل الأحوال، لذا فلا لزوم لأن يزعج نفسه. ودون أن ترد عليه حاولت صبّ فنجان آخر من القهوة له.. فأوقفها قائلاً:

ـ لا تزعجي نفسك، فلدي موعد بعد خمسة عشر دقيقة.. وحضّري نفسك لتكوني جاهزة عند السابعة.

ـ حسن جداً.

وفكّرت أن تعرض عليه حزم حقيبته. ولكنها لم تفعل، فاليوم لا يبدو أنهما أصدقاء.. هذا إذا كانا قد أصبحا أصدقاء أبداً..

وقبل أن يخرج، مدّ يده إلى محفظته، ثم اعطاها ببرود بعض المال. فقالت بحدة:

ـ لا أريد مالك!

ـ ستحتاجينه للتاكسي ذهاباً وإياباً من المستشفى.

ـ لديّ ما يكفيني.

ولكن الكلمة الأخيرة كانت له، فقد ترك المال على الطاولة بقربها، وخرج.

وصمّمت أن لا تلمس بنساً واحداً منها. . . فما معها يكفيها لأكثر من نصف دزينة من التاكسيات. . . أمامها أكثر من شهرين بعد لتتحمله. وسوف تعيد له المال في أول مناسبة.

ووصلت إلى المستشفى أبكر من المعتاد. وكان هذا لصالحها. . فلو أنها التزمت بنفس موعد زيارتها المعتادة، لما شاهدت رايان أبداً، فعندما دخلت القسم، لم تشاهده خارج السرير فقط، بل كان مرتدياً ثيابه. وصاح مرحباً:

ـ كولين! لقد حاولت الاتصال بك في الفندق منذ وقت قصير، ولكن جناحك لم يجاوب.

وكان هناك سؤال في صوته. . . سؤال كان يقول إنه قد سأل عنها باسمها، وعندما لم يحصل على رد سأل عن جوليانو انريكو، وعرف بأنها تشاركه الجناح. ولكن، بالنسبة لها، الشرح سيكون طويلاً ويتضمن أمور لا تريد قولها له. فتجاهلت نظرته المتسائلة، وحاولت معرفة ما يريد أن يفعل، وأين يظن بأنه ذاهب. وأخبرها أنه سيسافر إلى أكابولكو. فشهقت قائلة:

ـ ولكنك لا تستطيع. . . لست بحالة جيدة. . انظر إلى نفسك!. . أنت. . .

ـ وفّري كلامك يا كولين. . لقد سمعت كل ما ستقولينه من الموظفين هنا. . . مع أنني، ولسبب وجيه، لم أخبرهم أين سأذهب.

ـ وهل قالوا لك ان من الغباء أن تخرج من المستشفى؟

ـ لقد اتخذت قراري. . وسأستقل الباص بعد ساعة.

ـ الباص؟ ولكن ستستغرق الرحلة وقتاً طويلاً، وأنت لست مؤهلاً. . .

ـ لم أستطع الحصول على تذكرة طائرة، فالأماكن كلها محجوزة، واريد أن أرى بولا اليوم.

وكان يترنح على قدميه تقريباً، ولكن التصميم الذي رأته في عينيه، أعلمها أنها تضيع وقتها في اقناعه بعدم الذهاب. وقال لها:

ـ سأذهب يا كولين.

وعندما علمت أن رحلة الباص ستستغرق ما بين الست والسبع ساعات، ازداد قلقها عليه. لا يمكن لها أن تتركه يذهب لوحده، وقالت له بعناد يماثل عناده:

ـ سأذهب معك إذاً، هذا إذا أردتني معك.

وسألت نفسها هل كان سيحاول الاتصال بها ثانية في الفندق لو لم تأتِ، أم أنه كان ينوي الاختفاء دون ترك أي أثر مرة أخرى، ويتركها دون أية فكرة عما إذا كان سيلتقيان ثانية، ورد عليها على الفور:

ـ بالطبع أريدك معي. أريد أن تلتقي بولا بك. خذي هذا. .

والتقط مغلفاً وأعطاه لها.

ـ لقد كتبت لك رسالة عندما لم أستطع الاتصال بك في الفندق. وكنت سأعطيها لإحدى الممرضات لتسلمّك إياها. وذكرت فيها أين يمكن أن تجديني خلال الشهر القادم. . وعلى فكرة وضعت لك فيها ثمن تذكرة عودتك إلى انكلترا في حال سئمت العمل لجوليانو انريكو، وأردت العودة.

عندما ذكر اسم جوليانو، عاد التساؤل إلى لهجته، ولكن مرة أخرى اختارت كولين أن تتجاهله. وعليها الآن أن تعود إلى الفندق وتترك لجوليانو رسالة تشرح فيها أنها لا تستطيع ترك رايان

يسافر لوحده في الحالة التي هو فيها. فقالت:

ـ عليّ أن أعود بسرعة إلى الفندق.

ودفعت المغلف إلى أخيها فقال لها:

ـ احتفظي به يا حبيبتي. لقد وعدتك بدفع أجرة سفرك إذا أتيت إلى هنا. ألم أفعل هذا؟

ـ ولكن...

ـ دون ولكن... يا شقيقتي الصغيرة. ارجعي إلى الفندق وافعلي ما عليك أن تفعليه، بينما أتصل بمحطة الباص لأحصل على مقعد. سألتقيك في المحطة بعد ثلاثة أرباع الساعة.. أيمكنك أن تلحقي بي؟

ـ أجل...

وهي في طريقها إلى الفندق داخل التاكسي، فكّرت ماذا ستكتب لجوليانو. ولكن ما إن دخلت غرفتها وشاهدت حقيبتها جاهزة حتى واتتها فكرة.. لماذا تزعج نفسها بالكتابة؟ فجوليانو لا يهتم البتة بما ستفعله هي أو رايان... أليس من الأفضل لها أن تتركه الآن؟ إذا عادت معه إلى دورانغو فسيكون أمامها شهرين طويلين قاسيين لتعاني فيهما. شهرين الله وحده يعرف ما سيحدث خلالهما. جوليانو سيكون شخصاً بارداً ودون مشاعر. فهل تستطيع تحمّل شهرين من هذه المعاملة؟ ولماذا يجب أن تتحمل؟ ألم تهرب من والدها لتجد لنفسها حياة جديدة؟

وركبت كولين تاكسي آخر، دون أن تكتب رسالتها، وحقيبتها إلى جانبها على المقعد. بعد فوات الأوان، ندمت لأنها لم تكتب كلمة تشرح فيها كل شيء لجوليانو. هي تعلم الآن أنها لن تعود إليه، ولكن كان عليها أن تكتب بضع كلمات تشكره فيها. وغضبت

من نفسها.. لماذا؟ لقد حاولت إظهار عرفانها بالجميل له الليلة الماضية، ورمى لها هذا العرفان بالجميل في وجهها... وبكل وضوح لم يرغب في أن تشكره.

الرحلة الطويلة إلى أكابولكو، كانت مريحة بالمناظر الخلابة التي لم تفكر كولين بأنها ستراها يوماً. غابات بعد جبال، غابات من الأشجار تمر بها، تنتصب عالية يتخللها نبات الصبير، هنا وهناك.

وحاولت كولين أن تركّز تفكيرها على المناظر أمامها: طفل يركب حماراً صغيراً، الذرة التي تنمو في كل مكان يمكن أن تزرع فيه، ولكن عندما أخذت بقرة تسير الهوينا على الطريق، عادت أفكارها إلى دورانغو وإلى مزرعة جُوليانو. وتذكرت المرات العديدة التي ابتسم لها، وضحك لها أو حتى عليها... لا فرق. وهذا ما جعلها تتساءل ماذا تفعل وهي ذاهبة إلى أكابولكو، في وقت كل ما ترغب فيه حقاً هو أن تكون معه.

ثم تذكرت منظر وجهه المتجهم هذا الصباح.

وحرّرها من أفكارها الممزقة، صوت رايان، الذي كانت تظن بأنه نائم إلى يسارها، إذ حدّق فجأة بالخاتم الماسي في اصبعها وصاح:

ـ هاي... ما هذا؟

يا إلهي... لقد نسيته في غمرة انشغالها بالقرار حول الرسالة..

يا إله السماوات.. جوليانو لم يصدقها عندما قالت له إن رايان لم يكن مهتماً بأي كسب مالي قد يحصل عليه من الزواج بايزابيللا..

والخاتم يساوي ثروة... وسيعتقد الآن... وقال لها رايان مقاطعاً أفكارها:

ـ أظن أنه حان الوقت لتقولي لأخيك الأكبر كل شيء. أليس

كذلك؟

ـ لقد نسيت أن أعيده.

ـ لجوليانو انريكو؟ منذ متى أنت مخطوبة له؟

ـ منذ شهرين تقريباً.

ـ عمل سريع.

ـ وكم استغرقك من وقت لتقع في حب بولا؟

ـ لقد غلبتيني، ولكن ماذا تفعلين هنا معي وأنت تحبينه؟

ـ أنا.. نحن.. لقد تكلمنا مع بعضنا قليلاً. وتشاجرنا.

ـ سيتوضح لك كل شيء عن قريب. وهل ستستسلمين أولاً وتتصلي به الليلة؟

ـ لا.. أعتقد هذا.

فضحك وقال:

ـ وتتهميني بأنني عنيد!

وعاد إلى النوم.

الفتاة السوداء الشعر التي قابلتهما في أكابولكو لم تكن جميلة كما وصفها رايان، أو كما تصورت كولين أن تكون. ولكن ما كان ينقصها من جمال كانت تعوضه بأن تتصرف على سجيتها. ولم يمض وقت طويل حتى أدركت لماذا هرب رايان معها دون أن يترك أثراً.

الدفء في ابتسامة بولا، والحنان الذي صاحت به عندما رأت وجه رايان الذي كان لا يزال يحمل آثار الكدمات، والطريقة التي تعانقا بها، كل هذا أخبر كولين أنها أمام حب حقيقي... لو أن جوليانو فقط...

وأوقفت أفكارها عند هذا الحد. فجوليانو لن يحبها أبداً. ولا بد

أنه في هذه اللحظة بالذات يكره حتى التفكير بها... أوه.. لماذا لم تتذكر أن تترك الخاتم له؟

وخلال يومين.. مرحت كولين كثيراً في أكابولكو. وسبحت كما باقي السواح في ثوب السباحة، وواجهت الأمواج التي كانت ترتفع ثم تضرب الشاطىء.. ولاحظت أن رايان وبولا ليسا بحاجة لشخص ثالث ليكملا سعادتهما باجتماعهما ثانية. فبقيت بعيدة عنهما قدر استطاعتها.

وفي صباح أحد الأيام ذهبت في نزهة في قارب أرضه من زجاج. وعلمت تماماً. بعد أن توقف القارب وأخذ بعض البحارة يغطسون من تحته، لماذا لم تشعر بالإثارة... إذ لم يكن جوليانو معها.

شاطىء اكابولكو كان له منظر رائع من الصخور والتلال، وكانت واثقة أنها كانت ستراه مذهلاً، في ظروف أخرى، ولكن جوليانو كان يلتهم كل أفكارها. وكانت تتذكر كل مرة كان يكشف فيها عن رأيه فيها بأنها «صائدة ثروة» وكانت تعرف بأنه لا بد أن يكون الآن يلعن نفسه لأنه تركها تخدعه.

عليها أن تعيد الخاتم له، بالطبع. ولكن كيف؟ ووقفت في ظل شجرة لوز تتساءل هل تستطيع أن تؤمن على الخاتم لإرساله في البريد؟ ولكن ماذا إذا ضاع؟

في الليل، عندما أصرّ عليها رايان وبولا أن تذهب معهما لمشاهدة القافزين من الأمكنة المرتفعة في «لاكويبرادا» قالت لهما إنها تفضّل أن تنام باكراً، فاعترض رايان:

ـ ولكنك نمت باكراً ليلة أمس. وكثرة النوم ليست صحية يا فتاة! وهل قمت بتلك المخابرة بعد؟

- إذاً سآتي معكم لرؤية القافزين.

وأدركت أن شقيقها لا بد أنه أخبر بولا بأنها مخطوبة لجوليانو، وأنهما تشاجرا.

وقفت كولين برهبة بينما كان القافز الشاب يتسلق الصخرة العالية، ويقف فوق منصة القفز. وبنظرها تسلّق تلك الصخرة أمر خطر يماثل القفز إلى الماء في الأسفل. وكانت قد سمعت أن القافزين يعدّون الأمواج قبل القفز، وعند رقم محدد يقفزون. وأغمضت عينيها خوفاً على حياة القافز عندما رمى بنفسه. وجعلها التصفيق والهتاف تفتح عينيها، لتنظر إلى الماء. من وجهة نظرها التصفيق هذا سابق لأوانه، فالأفضل أن ينتظر الجميع حتى يظهر القافز فوق الماء ليحيوا شجاعته.

في طريق عودتهم إلى الفندق، خطرت لها فكرة أن تطلب من رايان إرجاع الخاتم إلى جوليانو عنها. رايان كان يتحسن يومياً، فربما الطقس الحار في أكابولكو قد أفاده، أو ربما القوة التي اكتسبها من رؤيته لبولا ثانية، لذا يستطيع أن يطير إلى دورانغو، ولن تكون الرحلة شاقة كما كانت رحلة القدوم إلى هنا.

بعد أن نزلوا من التاكسي، وساروا نحو الفندق نادته «رايان» فالتفت إليها، ولاحظت شحوباً خفيفاً في وجهه، من آثار ما مر به، فتلاشى كل اهتمامها بأن تقول له حول الخاتم، وتابعت بصوت ضعيف: «لا شيء» فقال لها بعد أن دخلوا المصعد «اتصلي به». .

ووصلت كولين قبل رايان وبولا إلى بركة السباحة، في الصباح التالي، حيث اتفقوا على اللقاء، وهي متشوقة لرؤية أخيها. ترددها كان قد أشرف على نهايته. فهناك أمر واحد يمكنها أن

تفعله، ودهشت من نفسها لأنها لم تكتشفه من قبل. قد يستلزم منها الكثير من الشجاعة، وهي تعرف هذا. ولكنها لم تدر ظهرها لحياتها القديمة لتصبح جبانة وغير قادرة على الوقوف في وجه الصعاب.

ولاحظ رايان هذا عندما شاهدها، وعلم أن ساعات ترددها قد ولّت فقال لها بعد أن أجلس بولا على مقعد مريح:

- وهل ستتصلين به الآن؟

فردت عليه كولين بهدوء:

- لقد قررت العودة لرؤيته.

واكتشفت عندها كم هو رائع شقيقها. فقال لها بجدية:

- كما يبدو عليك، فأنت ترغبين في ركوب أول طائرة للعودة.

ثم التفت إلى بولا ليقول لها إنه ذاهب مع كولين ليحجز لها تذكرة طائرة وسيعود قريباً.

حب رايان لبولا، خلق في نفسه حساً بالمسؤولية، وهذا واضح من الطريقة التي منع بها كولين أن تدفع أجرة سفرها، مع أنها اعترضت بأنها لا تزال تملك المال الذي أعطاه لها. وقال لها هامساً:

- أنا متأكد أنك لن تحتاجي للمال لشراء تذكرة السفر إلى انكلترا. . لذا، اشتري لنفسك هدية زواج مني ومن بولا.

كانت تعلم أنها ستعقّد الأمور أكثر إذا قالت له إن الزواج لن يتم. فرفعت نفسها إليه وقبّلته شاكرة.

وذهب رايان وبولا معها إلى المطار، وأظهرت بولا محبتها لها من خلال العناق الحار الذي تم بينهما بعد عناق شقيقها لها. ثم قال رايان:

- أنا أعرف كرهك لاستخدام الهاتف، ولكن اتصلي بي خلال

الثلاثة أسابيع القادمة لأطمئن عليك لأننا بعد ذلك سننتقل من عنواننا الحالي.

* * *

حتى دون أن يكون لديها أية فكرة عما قاله جوليانو لتينا وأمادو عندما عاد إلى منزله من دونها، فقد كانت واثقة، بعد أن حطّت الطائرة بها في دورانغو أنه لا يريد منها الاقتراب من منزله.

وهكذا حجزت غرفة في فندق متوسط، بعد أن أدركت أن الوقت متأخر وكانت على وشك الاتصال به وإنهاء الأمر. إلا أن التفكير السليم أشار إليها بأن من الأفضل الانتظار إلى الصباح. فقد يكون جوليانو قد خرج لتناول عشاءه خارج المنزل. ومع ذلك فقد التقطت الهاتف عند التاسعة وطلبت رقم منزله، وإذا كان في الخارج، فهي تكون قد حاولت على كل الأحوال، وعلمت أنها ستواجه أوقاتاً قاسية، فعلى الأقل ستعود لسماع رنة صوته التي تتشوق لسماعها.

وبدا الانتظار وكأنه لن ينتهي. وأحسّت بالتوتر حتى أنها كادت تضع السماعة من يدها. ثم سمعت صوتاً. صوت جوليانو، يتحدث بلغته المكسيكية، وتعلقت بالسماعة وكأنها جزء منها، وسمعت التململ في صوته عندما لم يرد عليه أحد، وتعلم جيداً أن ضيقه سينقلب بعد لحظات إلى غضب، وسيوجه هذا الغضب إليها مباشرة. فقالت:

ـ جو.. جوليانو.

ولم تسمع سوى الصمت المطبق، إلى أن جاءها صوته، وقد تعرّف على صوتها، بالانكليزية هذه المرة وبرباطة جأش، وهدوء، حتى أنها عرفت أنه كان يجاهد للسيطرة على نفسه كي لا ينفجر صارخاً فيها، كما تستحق تماماً، وقال متسائلاً:

ـ كولين؟ كولين أهذه أنت؟

وكأنه لا يصدق، لا يستطيع التصديق بعد أن هربت منه ومعها تلك الماسة الثمينة، أن عندها الجرأة لكي تتصل به ثانية.

•••

١٠ ـ حب يقهر الكبرياء

مسحت كولين عينيها بظهر يدها وهي تردّ هامسة:

ـ اجل.. هذا.. هذا أنا... لقد كنت في.. أكا... أكابولكو.

ـ وماذا بحق...

وغادرته طريقة كلامه الهادئة، حتى أن كولين سارعت، وقد تنبأت بانفجار غضبه، لمقاطعته قائلة:

ـ لقد ذهبت مع رايان.

فرد عليها بوحشية:

ـ أعلم هذا..

لا بد أنه قد جنّ عندما علم برحيلها، ورحيل خاتمه الالماسي معها، ومع ذلك فاول رد فعل له هو الإسراع إلى المستشفى. ولم يعطها فرصة للتفكير أكثر، مع أنه بدا أنه يحاول المستحيل للسيطرة على نفسه:

ـ أين في أكابولكو؟.. في أي فندق أنت؟

ـ أنا.. لست.. في أكابولكو الآن.

ولم يستطع أن يسيطر على غضبه أكثر، فانفجر مزمجراً في

أذنها:

ـ إذاً أين أنت بحق الجحيم؟

وارادت بأي طريقة أن ترضيه وتهدئه فأعطته على الفور اسم الفندق:

ـ إنه هنا.. هنا في دورانغو.

ـ أنت في دورانغو؟

وبدا لها وكأنه قد اضطرب لجرأتها في المجيء إلى هنا. فسارعت للتفسير له:

ـ لقد نسيت أنني أرتدي خاتمك عندما ذهبت.

وعرفت عندها أن غضبه أصبح أقوى من أن يسيطر عليه، عندما أتتها الكلمات راعدة عبر الخط قبل أن يقفل السماعة:

ـ يبدو لي أنك نسيت أشياء أخرى كثيرة غير هذا!

وتخدرت أحاسيسها، وحدّقت بالهاتف في يدها، قبل أن تعيد السماعة إلى مكانها. ولم تحاول خلع ملابسها لتأوي إلى الفراش، بل بدأت تذرع الغرفة، وأفكار عديدة تجول في رأسها، مؤلمة جداً، لا يمكن لها أن تتحملها وهي مستلقية.

بعد نصف ساعة، هدأت بشكل ما، ولكن اضطرابها وقلقها كان يمنعانها من الراحة. لن تستطيع أن تجد الجرأة ثانية للاتصال به، ليس الليلة على كل الأحوال، وتمنّت أن يعيد الاتصال بها، بعد أن يهدأ، ربما ليطلب منها أن تترك الخاتم في إدارة الفندق كي يستلمه. وعندما مرت نصف ساعة أخرى، ولم يرن جرس الهاتف، تأكدت أنه لن يتصل.

قد يتصل غداً، وحاولت التفكير في الوضع بشكل منطقي: بما أنها مضطرة لانتظار مكالمته، فالأفضل لها أن تبقى هنا لتدبير

ترتيبات عودتها إلى انكلترا.

قرع فجائي عنيف على بابها جعلها تتخلى عن أفكارها لتفتح الباب. وشحب وجهها، فجوليانو هو آخر شخص ممكن أن تتوقع رؤيته واقفاً هناك، وعيناه كأنهما قطعتان من الثلج الأزرق. ودفع الباب بكل هدوء، وبنفس الهدوء دخل الغرفة. وقال:

ـ جيد.. أرى أنك لم تأوي إلى الفراش بعد. هل أغراضك جاهزة؟

ـ أغراضي؟

ـ سوف تغادرين الفندق.. لا.. بل أنت غادرتيه فعلاً، لقد دفعت فاتورتك.

ـ ولكن.. أين نحن.. أين.

وتوقفت عن الكلام بعد أن نظر إلى وجهها وقال معلقاً:

ـ تبدين تعبة.

ثم تناول حقيبتها عن الأرض، وفتحها، وتوجه إلى الخزانة، ثم إلى الحمام فجمع فرشاة أسنانها ومشطها ووضعهما في حقيبة زينتها، ولملم الأغراض القليلة التي أخرجتها من حقيبتها، قبل أن تدرك ماذا يفعل. فجعلها تحفظها تقول له بعناد:

ـ لن أذهب إلى أي مكان معك يا جوليانو... أنا. لقد عدت فقط لأعطيك هذا.

وخلعت بسرعة الخاتم الالماسي الجميل من اصبعها ومدّت يدها به إليه.

ولكنها لم تشعر بالخاتم يغادر يدها لفترة طويلة.. فقد مدّ يده وأمسك بيدها، وأعاد دفع الخاتم إلى مكانه. وقال صائحاً:

ـ لقد وافقت على الخطوبة لثلاثة أشهر سنيوريتا. وما من أحد

يحنث بكلمته معي. حتى أنت! فإما أن تسيري معي أو أحملك وأخرج بك من هنا... فقرري الآن.

وجلست كولين مشدودة الأعصاب بقربه في سيارته، وقاد جوليانو السيارة بغضب وعنف. لم يكن لديها أي بديل عن القدوم معه. فقد كانت تعلم أن ما من شيء يمنعه من أن ينفذ تهديده ويسير خارجاً من الفندق وهو يحملها على كتفه بينما هي ترفس وتصيح أمام الجميع.

وهو يعرف هذا تماماً، اللعنة عليه، كان يعلم أنها تخشى أن تتعرض للسخرية علناً، وطول الطريق، في صمت، باتجاه المنزل، كانت تشعر بالغضب من تسلطه عليها. إذاً لقد كان حريصاً على أن لا يفقد كرامة وجهه أمام مجتمعه، ولا بد أنه لم يخبر أحداً أن خطوبتهما قد انتهت. وقد يكون ذكر شيئاً عن اضطرارها للعودة إلى انكلترا على عجل، أو أن والدها مريض.. أو أي حجة أخرى.

كولين تعلم جيداً ما يكمن وراء رفضها العودة معه، كانت خائفة. خائفة من أن يصر جوليانو على أن تبقى هناك لشهرين آخرين. ليس بسبب أن الأمر سيكون أسوأ عندما يحين وقت سفرها، بل، بما أنها تحبه، فقد يكتشف خلال هذين الشهرين هذه الحقيقة. وكبرياؤها لن يتحمل هذا.

وتلاشت ثورتها عند أول نظرة للبيت العزيز المألوف لها. ولم تعرف كيف استطاعت حبس دموعها عندما توقف جوليانو أمام المدخل. ولكنها استطاعت أن تحافظ على هدوئها وهي تخرج من السيارة وتدخل المنزل معه. وقال لها:

ـ سآخذ حقيبتك إلى غرفتك، وإذا لم تكوني ترغبين في أي شراب منعش، فأقترح عليك أن تذهبي إلى النوم فوراً.

- لا أريد شيئاً.

وجالت عيناها بمحبة في جدران الردهة البيضاء. ولم يكن أمامها مجال للرفض عندما تقدم جوليانو صاعداً السلم ثم فتح لها باب غرفة فوقها، ووضع حقيبتها هناك، فانضمت إليه.

ومرّت من أمامه إلى الداخل دون أية كلمة. لم تكن تريده أن يمد يده ليلمسها، أو يؤثر عليها، وهي تمر من أمامه. وبما أن هدفه في إعادتها إلى هنا قد تحقق، فيجب أن تكون عدوانيته قد بدأت تتلاشى الآن:

- تصبحين على خير يا كولين.. نامي جيداً.

وردت عليه باختصار:

- تصبح على خير.

ورفعت نظرها إليه، فاكتشفت عيناها أفكاراً غير سعيدة.. واحست بيده، دافئة، رقيقة، تقترب من وجهها.. وقال بنعومة:

- لا تأخذي الأمور بهذه القسوة يا كولين الحلوة.

وعانقها بسرعة ولطف ثم تركها وخرج.

اوه.. لماذا عانقها؟ وأخذت الدموع تنهمر من عينيها وهي تتأوه. لقد حاولت جهدها أن تكون باردة ومتحفظة، وها هو يعانقها ليفسد كل شيء.

وخلعت ملابسها لترتدي ثياب النوم. ولم تستطع فعل شيء للدموع التي كانت تنهمر كالمطر من عينيها. كم تغيرت من تلك الفتاة التي كانت. عندما كانت تعيش مع والدها لم تبك أبداً.. أبداً، لأنها وبكل بساطة لم تكن حية. والآن وقد خرجت من ذلك الفراغ، هي تشعر، وتتألم مثلها مثل باقي الناس تماماً. والألم أكبر لأنها لم تكن تعرف ألم الحب من قبل.

واستمرت دموعها بالتساقط.

عندما أحسّت بوخز حاد يهاجم حنجرتها، شعرت كولين أن قنوطها أصبح بدون حدود، فمنذ مدة طويلة غادرها هذا السعال المضني. وها هو يعود الآن، بسبب تعبها كما هو واضح، وهي لم تنم بشكل مريح منذ مدة، ولهذا فلن تستطيع الدفاع ضده.

وتركتها نوبة سعال قصيرة تشعر بالارتجاف. بعض الليموناضة الساخنة ستفيدها بالتأكيد.. ولكن ذكرى ذلك اليوم الذي تسللت فيه عند منتصف الليل لتحضّر بعضاً منه، عاودتها، ولن يجعلها أي شيء تكرر تلك التجربة.

ولم تمر كولين من قبل في حياتها بمثل شعور البؤس هذا الذي أحسّت به وهي جالسة على حافة سريرها بثوب نومها القطني الرقيق، تمسح الدموع عن وجهها، التي سبّبها الحزن والألم أكثر مما سبّبتها نوبة السعال، والتي يبدو أنها توقفت الآن، وشكراً للسماء. وأزاحت شعرها عن عينيها، ونظرت إلى الالماسة اللماعة... ثم لاحظت أن باب غرفتها مفتوح.

منذ متى كان جوليانو واقفاً هناك ينظر إليها؟ لم يكن لديها أية فكرة. ربما منذ لحظة، وربما أكثر، فقد كانت منشغلة جداً في تهدئة نفسها ومشاعرها، فلم تسمع الباب يفتح، ولم تشعر أبداً بوجوده، إلى أن تحرك وعندها رأته. فشهقت، ثم سعلت ثانية. كان لا يزال مرتدياً ثيابه ما عدا كنزته، ولا بد أنه كان على وشك خلع ثيابه للنوم عندما سمعها تسعل. وتقدم منها وأعطاها كوباً ساخناً لتشرب منه. وقال لها بهدوء:

- لقد تخلى عنك هذا السعال في وقت قصير خلال إقامتك في منزلي. ويبدو أن طقس أكابولكو لم يناسبك كما ناسبك طقس

دورانغو.

وتمنت لو أن دموعها تتوقف بسهولة كما أوقف الشراب الساخن سعالها، وتمنت لو أن جوليانو لم يكن لطيفاً هكذا معها. فهذا لن يفيدها أبداً في المعركة التي تدور في نفسها لايقاف البكاء. أرادته أن يخرج، ولكنه لم يكن يبدو مستعجلاً للعودة إلى غرفته الآن بعد أن توقف سعالها، وكانت خائفة جداً من أن يلاحظ، بعد أن توقف السعال، أن عيناها لا تزالان تدمعان. فقالت، مديرة وجهها عنه:

ـ ساكون بخير الآن. . شكراً. . .

ووضع يده تحت ذقنها، ومع أنها حاولت أن لا تلتفت إليه، فقد كانت أصابعه مصممة على أن تجعلها تنظر إليه.

ورفعت عينيها المبللتين إليه. ولكنها لم تستطع أن تفهم التعبير الذي على وجهه. وكانت يده ثابتة بلطف تحت ذقنها، وأملت. . لا. . لم تأمل، أن يبقى لطيفاً هكذا معها، وأحسّت بالارتباك عندما ترك ذقنها، وتقدم ليجلس على حافة السرير بقربها، وقال لها بخشونة لكن دون عدائية:

ـ دموع يا كولين؟ هل أنت تعيسة لهذه الدرجة بالعودة إلى منزلي، حتى أن ذلك جعلك تبكين؟

وفكرت فوراً أن تنفي هذه الفكرة. أليس من الحكمة أن تكون حذرة معه؟. . فأمامها شهرين بعد تقضيها معه، وأجابت ببطء:

ـ ليس. . ليس الأمر هكذا.

وأخرجت منديلاً من جيب ثوب نومها وحاولت جاهدة أن ترتب نفسها، وحالفها الحظ فقد توقفت دموعها. وسألها بهدوء:

ـ وماذا إذاً؟

ـ لا يهم. . .

ـ ولكني أعتقد أن الأمر يهمني.

وأحسّت بقربه منها بشكل غامر. فقد كانت تجلس بقربه على السرير وليس من مجال كي تبتعد عنه. وأمسك بيدها اليمنى، وهذا أيضاً لن يساعدها، وأخذ يمرر اصبعه على ظهر يدها. وتابع:

ـ أنا أعلم أنك لا تبكين بسهولة يا كولين. والأوقات القليلة التي شاهدتك تبكين فيها كان لها ما يبررها، فقد انطلقت بشكل طبيعي من معاناة عاطفية. . .

ـ لا تقل هذا!

قالت كلمتها بسرعة وقد لاحظت أنه يقترب من الحقيقة، ففكرت عندها أن هذه الكلمة قد كشفت الكثير، ولكن عندما تساءل جوليانو عن سببها، عرفت بارتياح أنه لم يربط معاناتها العاطفية به. . أو بمشاعرها نحوه.

ـ لا تخافي مشاعرك يا صغيرتي. ولا تمنعيها. . فأنا أفضّل أن تعترفي أنك تشعرين بالتعاسة لفراق شقيقك الذي عدت للاجتماع معه مؤخراً، على أن أعتقد بأنك تعيسة لاعادتي لك إلى منزلي.

وأعادت الكلمات في ذهنها حالمة «إعادتي لك إلى منزلي». كم بدت هذه الكلمات منه طبيعية! وكأنه يؤمن بأن منزله منزلها، وليس لها مكان آخر. وتماسكت، فمهما عنى بكلامه، فهو لم يقصد ما ظنته. هذه مجرد طريقة في الكلام، فالانكليزية ليست لغته الأم. ويجب أن تذكر نفسها بهذا، وعندما لم تردّ عليه، قال مؤكداً:

ـ هل أنا على حق. . . أليست الدموع بسبب فراقك لرايان ولهذا أنت حزينة؟

ـ ساشتاق إليه.

ـ ولكنك سترينه ثانية .

ولاحظت الابتسامة على وجهه وهو يحاول إسعادها، وبما أنها لا تستطيع البقاء محبطة هكذا، ليس وهو موجود معها، وليس قبل أن يخرج، فسوف لن تسمح للأفكار التعيسة أن تدخل إلى نفسها، وحاولت جهدها أن ترفع من روحها المعنوية . . وقالت بسعادة مفتعلة :

ـ بالطبع سأراه .

وعندما أدارت وجهها لتقدم إليه ابتسامة، وجدته يبتسم أيضاً. وسرّت لأنها قامت بهذا الجهد. وقال لها ببطء :

ـ لن أمانع إذا دعوتيه إلى هنا.

وأزال الذهول بسمتها عن وجهها :

ـ وهل ستستقبله هنا؟

ـ إذا كانت هذه رغبتك .

ـ ولكن . . .

وصمتت غير قادرة سوى على النظر إليه. وعاودتها الرغبة في البكاء، لأن جوليانو الذي يكره رايان بالتأكيد لما فعله مع عائلته، تمنعه كرامته من أن يراها تعيسة في منزله، لأنها ودعت شقيقها إلى الأبد، فتغلب على الكراهية في نفسه كي تستطيع أن تجد الشهرين القادمين مليئين بالسعادة. وقالت بهدوء :

ـ لا أستطيع فعل هذا معك يا جوليانو.

ـ لا تستطيعين فعل ماذا؟

ـ أن أسمح لك بالتنازل عن كرامتك لأجل كرامتي .

إذا كان قد فهم ما قالته أم لا، فلم يظهر عليه أي دليل، ولكن نبضات قلبها تسارعت عندما سمعته يقول :

ـ الحب يقهر أي كبرياء .

فهل لاحظ أن عندها بعض الكبرياء فيما يختص به؟ لقد فقدت كبرياءها عندما بدأت تبكي لأجله، وعندما شاهدها وهي تبكي، وبسرعة حاولت إبعاده عن موضوع الحب، فقالت :

ـ لا أعتقد أنني سأرى رايان قبل عودتي إلى انكلترا، بولا ورايان سوف يبقيان في أكابولكو لعدة أسابيع ثم سينتقلان من هناك. وسوف يكتب لي إلى انكلترا بالطبع .

وتذكرت أن ليس عندها منزل في انكلترا، فتابعت :

ـ مع أنني لم أحضّر ترتيباتي للإقامة هناك بعد، وسوف يضطر للكتابة إلى عنوان البريد أو بأية طريقة أخرى إلى أن أستقر في منزل .

ـ أليس لك مكان للإقامة مع والدك؟

ـ لقد قلت لك إنه سيتزوج ثانية . . وقد عرض المنزل للبيع عندما سافرت .

ـ وكذلك قلت إن لا مكان لك في منزله الجديد. أتعنين أنه لا يوجد لك غرفة في منزله؟

ـ لا أريد الذهاب إلى هناك .

وأدركت بأنه قد فهم أن والدها لا يريدها أن تعيش معه، فقد عرض عليها ببرود :

ـ يمكنك الإقامة هنا. بإمكانك جعل هنا منزلك إذا رغبت .

من المؤكد أنها لم تسمع بشكل صحيح ، فحدقت به ثانية . وأخذت أفكارها تدور محاولة أن تفهم ما يقصده حقاً :

ـ أتعني . . . أن أبقى في المكسيك . . أن أبقى في دورانغو؟

ورد عليها بنفس البرودة :

- أعني.. أن بإمكانك البقاء هنا.. هنا في منزلي.

- لا!...

جاء ردها فورياً وعنيفاً، وهذا جعل حاجبيه ينكمشان بتقطيبة سوداء، ولكن بالنسبة لكولين لم يكن هناك أي جواب آخر، فلم يكن لديها بعد فكرة عن كيفية تمضيتها للشهرين القادمين هنا. ولم تجرؤ على التفكير بالبقاء مدة أطول. وأن تراه كل يوم، أن تتعشى معه، أن تعمل معه... واسكتت أفكارها بحزم، وقالت ثانية، بنبرة تأكيد على ما تقول «لا!».

- إذاً.. لم يكن الأمر كما ظننت، لقد كان بكاءك لأنك غير سعيدة هنا.

فصرخت:

- لا.. لا.. لا!

وأرادت أن تقف لتبتعد عنه، ولكنها وجدت نفسها محشورة بينه وبين قوائم السرير. يجب عليها أن تهدأ، فلن تستفيد من ثورتها. وتنفست نفساً عميقاً، وهي مدركة من نظرة التجهم على وجهه أنه لا يصدقها. فقالت بهدوء قدر ما استطاعت:

- بلدي هي انكلترا. أنا.. أحب بلدك.. ولكن بعد شهرين سوف أعود إلى انكلترا.

ولم يعجبه ما قالته. حتى اعترافها بمحبة بلده لم تجعل نظرته القاتمة تضيء. وفجأة بدا أنه ضجر منها كما حدث معه في الفندق في مدينة المكسيك. فقال بخشونة:

- إذاً اذهبي. اللعنة عليك! ولن أفعل شيئاً لمنعك. وحين تنتهي فترة خطوبتنا سوف أشتري لك بنفسي تذكرة سفرك.

وآلمها كلامه، فقد غرز سكيناً في قلبها، وبدا فجأة أنه لا يهتم

بها، ويستطيع أن يتحول من رجل عرض عليها سقف بيته، إلى رجل لا يستطيع انتظار اليوم الذي يستطيع فيه الخلاص منها. وتغلب كبرياؤها، فرفعت رأسها بكل شموخ وقالت:

- تستطيع الاحتفاظ بمالك يا جوليانو اتريكو غاتورادي.. فأنا أستطيع دفع ثمن تذكرتي بنفسي.

- أتستطيعين؟.. وكيف حصلتِ على المال؟ من أعطاك إياه؟

- رايان شقيقي. إذا كان لا بد أن تعرف.

ثم لاحظت على الفور توتراً سيطر عليه، توتر امتدّ إليها، وبدأ يزعجها.. شيء ما صدمه، عرفت هذا.. ولكن دون أن تعرف ما هو. وطال الصمت بينهما وهي تعيد تذكر ما قالته له، ولكنها لم تستطع أن تفهم ما الذي يمكن أن يوتره هكذا وكأنه فخ منصوب على وشك الانطلاق.

ثم، كسر الصمت، وكانت كولين على وشك اكتشاف ما استنتجه من كلامها:

- لقد حصلتِ على أجرة سفرك.. ومع ذلك عدتِ إلى دورانغو؟ إلى المكان الذي يبدو أنك متلهفة جداً لتبتعدي عنه؟

لهجته كانت باردة، ولكن فيها مغزى معين... إشارة جعلتها تقلق، وذلك لأنه كان مهتماً جداً بجوابها:

- لقد قلت لك لماذا عدت.

عليه أن يصدق، حتى وهي تدرك الآن أنها كانت تكذب على نفسها، وتابعت:

- لقد نسيت إرجاع الخاتم لك. لقد أخبرتك بهذا.. والخاتم كان السبب الوحيد في...

- هل هذا صحيح يا كولين؟

أوه.. يا إلهي!.. هذا أمر رهيب.. سوف تموت من الحرج إذا استمر هكذا، إذا اكتشف أنها... وهزت كتفيها:

ـ يا للسماء يا جوليانو... ما هي الأسباب الأخرى إذاً؟.. أعتقد حقاً أن عليك أن تخرج الآن.. انظر إلى الساعة... لن نستطيع كلانا أن نستيقظ صباحاً بشكل ملائم.

فردّ عليها بنعومة:

ـ تبدين مذعورة يا طفلتي... لماذا يا كولين؟ ما الذي يخيفك؟

ـ لا شيء.. لا شيء يخيفني.. أنا أريدك أن تخرج.. كي أستطيع النوم.

ولعقت شفتاها الجافتين ثم ذكّرته بسرعة:

ـ لقد قلت بنفسك إن التعب يبدو عليّ.

وأجفلت عندما جعلته هذه الملاحظة يلتفت ليحدق بها. ثم لم تعد تطيق نظرته المتفحصة، خوفاً من أن يكتشف ما بها. واندفعت من مكانها بينه وبين قوائم السرير، وذهبت لتقف إلى جانب مقعد مستدير عبر الغرفة.

فوقف جوليانو ووضع يديه في جيبي بنطلونه، وقال:

ـ ربما تكونين تعبة... ولكنني أشك في أنك ستستطيعين النوم في هذه الحالة التي أنت فيها.

ـ وكذلك لن أستطيع النوم قبل خروجك.. أليس كذلك؟

ـ إذاً، يبدو أن حل المشكلتين بين يديك. كل ما عليك أن تفعلي هو القول لي لماذا، وكان بإمكانك عن طريق نصف دزينة من الطرق إعادة الخاتم لي، لماذا عدتِ بنفسك.. وعندها سأخرج.

ـ لقد عقدت اتفاقاً معك للبقاء شهرين هنا.

ـ ولكنك كنت مستعدة للتراجع عن الاتفاق عندما أتيت إلى

دورانغو لآتي بك إلى هنا.

ـ أنا.. أنا.. حسناً.. كنت أعيد النظر. لقد كنت.. بدوت.. في مدينة المكسيك.. إنك.. في النهاية.. لم تكن ترغب في بقائي معك. وتذكرت هذا عندما وصلت إلى دورانغو.. ففكرت أنني...

ـ أنت كاذبة بائسة يا كولين شادو.. هل تعرفين هذا؟

وعندها فقط انفجرت، ولم تعد تستطيع الاحتفاظ بسرها، فكل جهودها لمنعه من معرفة الحقيقة ذهبت أدراج الرياح وهي تصيح به:

ـ اللعنة عليك يا جوليانو... أنا أحبك! قل عني الآن إنني كاذبة!

الصمت في الغرفة أصبح يصمّ الآذان. فمهما كان يتوقع سماعه، فلا يمكن أن يكون هذا. وتمنّت لو تنشق الأرض وتبتلعها وهي تراه واقفاً مسمّراً في مكانه، ووجهه قد فقد لونه.

ولم تعد تتحمل هذه النظرة المذهولة على وجهه، فأدارت له ظهرها بسرعة، محاولة أن تمنع الدموع من الخروج، متمسكة بما تبقى لها من كبرياء، وقالت له بجفاء:

ـ أرجوك أن تخرج سنيور.. لقد أردت الانتقام لما فعله شقيقي مع عائلتك... وأظن أن حباً غير متبادل هو تعويض كافٍ لك.

وسمعته يتحرك، وكان يجب أن تقول له شيئاً واحداً بعد قبل أن يخرج:

ـ سأعود غداً إلى انكلترا.

الصوت التالي الذي كانت تتوقع سماعه، هو صوت فتحه للباب وهو خارج. لذا أصابتها الصدمة عندما أمسكت يداه القويتان

بذراعيها وأدارتها لتواجهه، فتراجعت بقوة، محاولة الافلات.

ولكنه، كما اكتشفت، لم يكن ينوي أن يتركها. وكان عنده بضع كلمات ليقولها لها، ويفاجئها بها، حتى ولو اضطر، لأنها لم ترفع رأسها إليه، أن يقولها لقمة رأسها الأشقر:

ـ وماذا، يا صغيرتي كولين، تريدينني أن أفعل بخطوبتنا؟

ـ ألا يمكنك.. أن تفكر.. بقصة ما؟ أعلم أن فقدانك لماء وجهك يقلقك، و.. ولكن.. ولكنني سأنفذ أي شيء تريد...

ـ أفقد ماء وجهي؟ لا يا عزيزتي كولين. ما يقوله الناس عني لا يهمني.

وهذه أول مفاجأة لها. فقالت محتجة:

ـ ولكن... لهذا السبب تمت خطوبتنا.. أليس كذلك؟

ـ لقد أصبحنا مخطوبين لإنقاذ ماء وجهك أنت بسبب أفكار تينا الشريرة عنك.

وفكرت بتعاسة أنه غير مهتم، فقالت له باختصار:

ـ حسناً لقد أردت الانتقام من عائلتي... وهذا هو السبب الوحيد لإتيانك بي إلى هنا في المقام الأول.. كي...

ـ كم تحبين أن تستنتجي استنتاجات خاطئة. لقد كنت بحاجة لسبب كي أحضرك معي.. بالطبع... كان عليّ أن أصطحبك إلى هنا يا كولين.. ولم أكن أستطيع مغادرة كواريتارو من دونك.

ذلك لأنها كانت على وشك الإفلاس.. اللعنة. ولكنها فكّرت بحيرة: كان بإمكانه تركها هناك دون اكتراث... هل هي الفروسية في نفسه إذا لم يكن السبب هو في جعلها تعمل بعد اعتقاده أنها لم تتعب نفسها من قبل، فهل هي شهامة الفروسية التي دفعته لكي لا يتركها هناك معدمة؟ وقالت بجفاء.

ـ كان بإمكاني الذهاب إلى القنصلية البريطانية.. وعندما أخبرهم بأنني لا أملك المال الكافي...

ـ لم تكوني لا تملكين المال الكافي، بل كنت معدمة.. وهذه كانت أكبر ضربة حظ لي.

ـ ولماذا؟

فسألها بنعومة:

ـ ألا تعرفين لماذا؟

وهزّت رأسها بالنفي، ولم تغادره رغبته في مداعبتها بازعاج، ولهجته الرقيقة تهدد بإذابتها، وسألها متابعاً:

ـ أليس لديك أية فكرة؟

وعادت كولين تفكر، ولم تستنتج شيئاً. يبدو أنها لم تعد تستطيع الفهم بسبب حبها له.. وربما بإمكانها أن تفكر بجلاء أكثر لو لم يكن معها في الغرفة.. لو لم يكن يحتضنها، ويتحدث برقة إليها.

ـ لا شيء.. لا فكرة أبداً.

وفجأة أخذت تتعلق به، ورأسها مرفوع إليه، وعدم التصديق يملأ عينيها، عندما قال لها بحنان:

ـ ألم يكن هناك في حياتك أي حب يا كولين، حتى أنك لا تستطيعين أن تفهمي.. أنني مهتم بك؟

ـ أنت.. مهتم.. بي؟

عيناه كانتا تقولان لها إنه يهتم. وكذلك ابتسامته الناعمة عل شفتيه. ومع ذلك لم تكن مصدقة بعد، وقال لها بهدوء:

ـ لماذا إذاً، فتحت حقيبتك لأرى ما تحتويه محفظتك؟

ـ وهل أردتني أن أكون مفلسة؟

ـ أردتك في بيتي.. وكونك مفلسة أعطاني الفرصة.. أجل يا

حبي.. أردتك مفلسة.

ـ ولكن.. ولكنك لم تكن تحبني يومها.

ـ كنت يومها أكره نفسي أكثر.. كرهت نفسي لقوة تأثيرك عليّ منذ أول لحظة احتويتك بها بين ذراعيّ.

ـ عندما أغمي عليّ.

ـ لقد ظننت عندها أن السبب هو التعب. ولم أكن أعلم أن السبب هو مرضك.

وتجهم وجهه وكأنه يكره نفسه لإجبارها على العمل، وأذاب تجهمه عدم تصديقها. وأخذ قلبها يخفق بالسعادة، وكانت واثقة بانه سيسمع هذه الدقات. وقال لها:

ـ لقد التقطتك بين ذراعيّ، وعلمت عندها أنك كل حياتي.

فقالت له وهي ترتجف، وذراعاه القويتان تلفانها:

ـ أوه.. يا جوليانو!

ـ أوه يا كولين..

وضمّها إليه أكثر، ثم نظر إلى عمق عينيها، عميقاً حتى روحها:

ـ أردتك أن تكوني مفلسة.. يا ملاكي.. فقد احتجت لهذه الفرصة، أية فرصة، فهي كانت تعني أنني لا أستطيع تركك تذهبين.

ـ ألم تكن تريدني أن أترك... المكسيك؟

ـ إلا إذا كنت معك.

وأراحت كولين رأسها على صدره، وهي تشعر بالهدوء والسلام. ولأن الأمر كان لا يصدق، خافت أن تقرص نفسها حتى لا تستيقظ وتكتشف أنها كانت تحلم.

وخلال دقائق طويلة أبقاها جوليانو قرب قلبه، وأخذ يربت على

شعرها بنعومة، ليظهر لها عمق مشاعره. وأخذ يخبرها كيف أنه كان يريدها معه، حتى قبل أن يجيء إلى الفندق ليصطحبها كان قد اتصل بتينا لتحضّر غرفة الضيوف. على أمل أن يفكر بحجة ما ليحضرها معه. وقالت له كولين:

ـ صدقاً؟

ـ صدقاً. أيتها المتشككة الصغيرة.

وشدّ عليها بذراعيه حتى كاد يسحق ضلوعها.

ـ دايوس.. يا إلهي كم أحبك، يا جميلتي كولين!

ـ أوه يا جوليانو، أنا أحبك كثيراً.. وكنت أظن ان قلبي سيتحطم!

ـ تي كويرو.. تي آمو...

ـ تي آمو؟

ـ هذا يعني أنا أحبك.

ـ قد قلت هذه الكلمة.. في الاسبوع الأول لوجودي هنا.. ذلك اليوم في منزل المشرف.

ـ ألم أقل لك إنني منذ البداية عرفت بأنك حياتي؟

ـ أوه يا جوليانو.. كم أتمنى لو أنني كنت أعرف هذا يومها.

فابتسم وقال:

ـ لا أظن بأن الكلمة كانت ستعجبك يومها. لقد اكتشفت بأننا شخص واحد جسدياً، ولكنني لم أكن أعتقد، مع وجود روحك الصغيرة المتحفظة، أنك كنت تحبينني يومها؟

ـ ربما لا.. فأنا لم أتعامل مع رجل من قبل، ولا أعرف هذه الأمور وكنت أظن أن شيئاً ما يحدث لي، لروحي الصغيرة المحافظة. لقد اكتشفت أنني أحبك عندما دخلنا الفندق في مدينة

مكسيكو.. وكانت المرة الثانية التي أبكي فيها بسببك.

حبه كان جديداً عليها، وجعلته تقطيبتها الصغيرة المتحيرة، يتخلى عن أية رغبة قد تساوره، وأصبح تواقاً لإزالة هذه التقطيبة عن وجهها.. فقال:

ـ ما بك.. مياموري (يا حبي)؟ اخبريني.. فلا شيء يجب أن يزعجك أو يؤلمك بعد الآن.

ـ إذا كنت تحبني، فلماذا كنت بارداً معي في نهاية إقامتنا في مدينة مكسيكو؟

ـ احبك؟ بل اعبدك! يا حلوتي الصغيرة، ولكن البرود؟ ربما بدوت هكذا، ولكن لم يكن هذا يعكس مشاعري الداخلية.. ففي داخلي كان هناك اتون مشتعل طوال الاسبوع.. وكان أمراً خاطئاً أن أستبقيك معي في نفس الجناح، ولكن أردتك أن تكوني هناك. وظننت أنني سأتحمل هذا. ظننت... انني نجحت في الابتعاد عنك. ثم يوم خرجت تحت المطر لترقصي.. أثرتي رغبتي فيك التي هي جزء من حبي لك... هل تمانعين بهذا؟

ـ أبداً.. لقد كنت تقول..

ـ كنت أقول يا سيدتي الصغيرة المقطبة. أن رؤيتك ذلك اليوم، وقد التصقت بك ملابسك، كنت على وشك أن... والطريقة الوحيدة لتجنب أن يحدث هذا، هو ان أتظاهر بعكس ما أشعر. فأنا لم ارد أبداً أن أؤلمك يا حبيبتي.

وابتسمت له كولين لتظهر له أنه لا يمكن أن يؤلمها أبداً، فحبه لها هو كل ما يهمها.. ثم تكلم عن يوم عاد إلى الفندق ووجد أنها سافرت إلى أكابولكو:

ـ لم أستطع يومها التصديق.. لقد توقعت أن تكوني بانتظاري،

ولم أستطع التصديق حتى بعد أن وجدت أن ثيابك وحقيبتك مختفيتان.

ـ وهل سامحتني؟

ـ أسامحك على أي شيء يمنحني حبك لي.

وجعلته دقة على الباب يسحب ذراعيه من حولها، ثم يستدير نحوه، وفتح الباب ورأيا تينا تقف هناك. وهذه المرة شاهدت الابتسامة على وجهها، وهي تنقل نظرها من الفراش إليهما.

وتبادلت مع جوليانو عدة كلمات بالإسبانية، ثم تركتهما وباب غرفة النوم مفتوح وهي تقول: «بيوناس نيتشاس سنيوريتا» أي ليلة طيبة سيدتي. وقال جوليانو وهو يجلس على السرير ويجذب كولين معه:

ـ هناك أوقات أفكر فيها جدياً بالاستغناء عن خدمات تينا.

ـ لا!..

ـ وهل تحبينها؟..

ـ نعم.. أحبها.

ـ في هذه الحالة سأتركها تبقى معنا، لقد قالت إنها سمعتك تسعلين ورأت ضوء غرفتك عندما أتت لتستمع إلى سعالك.

ـ الحبيبة!

ـ هذا ليس ما دعوتها به للتو. ولكن بما أنها ذهبت وهي تبتسم، فأنا اشك في أنها غضبت.

وأمسك بيدها اليسرى ورفعها إلى شفتيه، وقبلها بكل حنان حيث تضع الخاتم.. وقال لها بأسف:

ـ سأتركك الآن يا حبيبتي.. ولكن فقط إذا وعدتني بالاستيقاظ باكراً... فلن أكون صبوراً بانتظار رؤيتك.

ـ ألن تعمل في الغد؟

ـ لديّ الكثير لتحضيره، فمع هذا الخاتم الذي يرتاح في اصبعك والذي نسيتِ أن ترديه إليّ . . . قد يكون عليّ أن أضع خاتماً آخر بجانبه ليسليه؟

وكان هذا أجمل طلب زواج سمعت عنه كولين. وشعّ الحب من عينيها وهي تقول هامسة:

ـ قريباً . . نعم قريباً . . ارجوك، يا جوليانو!

●●●